شخصيات مجمعية

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره بالجيزة حفل استقبال لعضوه الجديد الأستاذ مصطفى مرعى . وفيما يلى ما ألقى فى الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس فى استقبال :

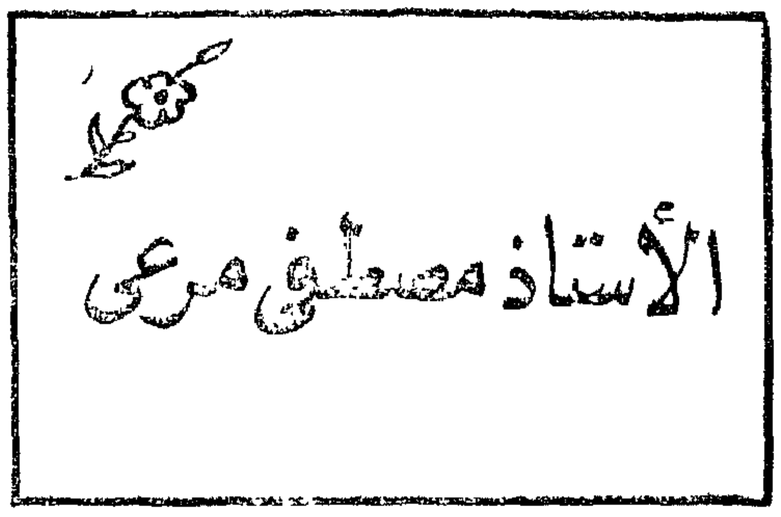

سيداتى ، سادتى

إنه ليسر المجمع كل السرور أن يستقبل اليوم زميلا جديدا ، وعلما من أعلام القانون هو الأستاذ مصطفى مرعى ، لقد كان من المفروض أن يستقبل الزميل خلال الدورة المجمعية الماضية ، ولكن لأسباب خارجة عن إرادته وارادتنا تأجل استقباله إلى اليوم ، والمجمع إذ يهنىء الزميل بما نال من ثقة وتقدير ليسعده كل السعادة أن يرى كفاية علمية عظيمة تضاف اليوم إلى كفاياته ، وأن يرى نشاطاً جديداً يلتقى بنشاطه ، فكذلك كان المجمع ومازال وسيظل دائما مثابة للثقافات العالية ، وملتقى للكفايات الممتازة .

والزميل مصطفى مرعى ليس غريباً علينا ، فكلنا مايزال يذكر له تلك المواقف الوطنية العظيمة داخل البرلمان وخارج البرلمان ، وفى الوزارة وخارج الوزارة ؛ ولعله كان أول وزير يسبب استقالته من الوزارة بأسبابها الحقيقية ، فقد ألفنا من الوزراء إذا استقالوا من الوزارة عللوا هذه الاستقالات بتلك العبارة التقليدية المألوفة وهى « لأسباب صحية » ولكن الزميل مصطفى مرعى وضع النقط فوق الحروف ، وعلل استقالته بعدم التعاون مع رئيس الوزراء ، وإذا لم تخنى الذاكرة فإنه قد اتهم رئيس الوزراء بالتزوير فى أوراق رسمية ، وهذا موقف شجاع لم يكن لنا عهد به .

ثم يجب ألا يغيب عنكم أيتها السيدات والسادة أن بينى وبين الزميل مصطفى مرعى علاقة وثيقة ، وصلة موكدة ؛ ليست هى صلة المجمع ولا العلم ، ولا الزمالة ، ولكنها صلة الطربوشية ؛ فكم تمنيت أن أرى فى المجمع زميلا يشاطرنى تلك العلامة المميزة ، وها قد تحققت أمنيتى ؛ رحم الله أياماً كنت أرى فيها

الطرابيش فى المجمع بقدر عدد الأعضاء ، وبقدر عدد الموظفين ، ولكنى أصبحت فإذا المجمع ليس فيه إلا طربوش واحد يوحد الله.

فليهنأ صديقى الأستاذ مصطفى مرعى بانضمامه إلى الأسرة المجمعية ، ومرحبا به فى مجمع الخالدين :

أما الآن أيتها السيدات والسادة فسيتولى استقبال الزميل الأستاذ الجليل عبد العزيز محمد عضو المجمع ، ويليه الصديق الأديب الأستاذ ثروت أباظة فيلقى كلمة كان المرحوم الأستاذ عزيز أباظة طيّب الله ثراه — قد أعدها لاستقبال زميله وصديقه الأستاذ مصطفى مرعى .

ثم يليهما الزميل الجديد الأستاذ مصطفى مرعى فيقول كلمته عن سلفه المرحوم الدكتور محمد عوض محمد ، فليتفضل الزميل الأستاذ عبد العزيز محمد مشكورا.

●●● كلمة الأستاذ عبد العزيز محمد :

السيد الرئيس — أيها السادة :

أشعر بسعادة غامرة إذ أقدم اليوم كبيرا من أساطين رجال القانون ، جال فى جميع ميادين القانون وتسنم القمم فيها جميعا .. من محاماة وقضاء ، وفقه ، حتى إذا بلغ فى ذلك المدى تصدى للشئون العامة فحمل أعباءها ، وكافح فى سبيلها ، وكان له فى ذلك مقام معلوم . . . وبعد ، فهو من صفوة رجال الفكر المعاصرين . . . شخصية لا شك فذة متعددة الجوانب — وسأحاول جاهدا فى هذا المجال المحدود ، أن ألم إلماما سريعا موجزا ببعض هذه الجوانب العديدة وإن كنت أشعر أنه ليس من اليسير أن أقدر مايجب أن أذكر وما أدع .. فأمامى صفحات جديرة بالنشر كاملة ، ولكن يضيق المجال عن ذكر شىء من التفصيل والإفاضة .

ولد الزميل الفاضل فى ١٨ من يونية سنة ١٩٠٢ بالجزيرة الخضراء مركز فوّه ، وقد تجلت مواهبه مبكرة . . فهو دواما فى مقدمة المبرزين فى الدراسة وذلك فى جميع مراحل التعليم ... وكان هذا هو شأنه حين حصل فى سنة ١٩٢٣ على شهادة الليسانس فى الحقوق ، وقد كان تفوقه يؤهله للالتحاق بالنيابة العامة ، ولكنه آثر مجالا أشق محفوفا بالمخاطر والمصاعب .. مليئاً بالعقبات ، وهو مجال المحاماة وقد زاد عليه هذا الطريق وعورة أنه لم يشأ أن يدخل هذا الميدان كما يدخله أى حامل لإجازة المرور بل دخله بآمال كبار دخله على أن يجد له مكانا فى الصدر . . وكان هذا يعد طموحا بعيد المنال ... ذلك أن المحاماة إذ ذاك كانت تزخر بأعلامها الخالدين الذين عاصروا نشأتها الأولى ، وكان لهم

الفضل فى رفعة مكانتها — ولكن الزميل اقتحم الطريق بنفس مطمئنة وخطى ثابتة يؤنسه عزم صادق ، وجد صارم ، وعاونته مواهب فذة . فلم تمض سنوات قليلة حتى ذللت الصعاب وأدرك مكانا مرموقا فى مهنته ، على أن مكانته لم تبلغ شأوها الحق إلا بعد أن زاول المهنة فى القاهرة فى سنة ١٩٣٦ بعد أن استقال من القضاء وعاد إلى مجاله المفضل فأصبح بعد قليل على رأس الصف الأول مع شيوخ المهنة وأعلامها ، ولا غرو فقد أحب المحاماة ، وقدر سمو رسالتها فوهبها بكل صدق وإخلاص روحه وقلبه ، فخلفت عليه مجدها ، وجازته إحسانا بإحسان ..

وقد كانت مواهبه لا تبارى ، ومثله العليا التى التزمها هى الشعلة التى أضاءت له معالم الطريق .

وإنا لنرى تقديره للمحاماة فيما سطره فى صدر كتابه الذى ألفه وهو فى القضاء إذ جعل إهداءه للمحاماة ، واصفا إياها بأنها مهنة الكرامة والكفاح والحرية ، والواقع أن هذه الكلمة تعبر تعبيراً صادقاً عما التزمه هو فى أداء رسالته من مثل تزمت فى الحرص عليها فبلغ ما بلغ .

ثم تلت بعد ذلك فترة بعد فيها عن المحاماة من سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٨ ، كان يشغل فيها وظائف مختلفة ، إلى أن عاد للمحاماة سنة ١٩٤٩ ، وظل بها حتى سنة ١٩٥٩ حيث أثقل العمل كاهله ، فقد كان المورد العذب الذى كثر عليه الزحام ، ولم يستطع أن يرد قاصدا يبغى حقا ، وهو القائل : إن المحاماة مروءة ونجدة ، فنال ذلك من صحته ، فاضطر مكرها لاعتزال العمل فى المحاماة ، بعد أن ظل يمارسها نحو ربع قرن من الزمان ، خلف فيها ذكرى لازال يتحدث بها زملاؤه فى ندواتهم كلما طاب لهم أن يتحدثوا عن أمجاد المحاماة ، وحملة مشاعلها — كما ترك مثلا لمن يبغى فى المهنة علوًّا .

على أن اعتزال الزميل العمل فى المحاماة فى سنة ١٩٥٩ لم يكن — وما كان يمكن أن يكون — إلى فراغ ... فقد عكف على هوايته المفضلة وهى الإحاطة بشتى ألوان المعرفة ... يطلع ويدرس ويتحقق ، حتى لقد أضحى موسوعى المعارف .

ولا أنسى محاضرة قيمة ألقاها بعد اعتزاله — عن العلم والفلسفة — أحاط فيها بهذا الموضوع الدقيق إحاطة تنم عن التعمق وسعة الأفق ، وتدل على أن ملقيها هو حقا من صفوة رجال الفكر المعاصرين ..

أما فى القضاء فقد ألقيت إليه أمانة الحكم فى سنة ١٩٣٢ بتعيينه قاضيا بمحكمة الإسكندرية ، وقد عهد إليه رغما عن حداثة عهده بالقضاء بتطبيق نظام قضائى جديد فى المحاكم الوطنية ، وهو نظام القضاء المستعجل ، فقام بالعبء على أكمل وجه . مما أسهم فى نجاح هذا النظام فظل قائما حتى اليوم :

وقد أهله هذا النجاح للتعيين عضوا فى التفتيش القضائى بوزارة العدل ليقدر جهود رجال القضاء ويزن أعمالهم، وذلك رغما عن أنه كان إذ ذاك فى أول درجات القضاء، وكان هذا التقدير تقديرا عظيما لم يسبق إليه :

ولكن رغما عما صادفه من نجاح فقد غلبه الحنين إلى المحاماة التى وصفها بأنها « مهنة الكرامة والكفاح والحرية » . . فاستقال فى سنة ١٩٣٦، ومارس المحاماة فى القاهرة حتى عين فى سنة ١٩٣٩ فى النيابة العامة محامياً عاماً، وهى وظيفة تلى النائب العام مباشرة، ثم عين بعد ذلك مستشارا بمحكمة الاستئناف.

وأخيراً بلغ ذروة المناصب القضائية بتعيينه فى سنة ١٩٤٦ مستشاراً بمحكمة النقض فأتاح له ذلك أن يسهم فى المهمة الجليلة التى تقوم عليها المحكمة ، وهى تجلية غوامض القانون وتقعيد القواعد القانونية ، وتقويم المعوج من الأحكام — وكانت هذه هى آخر رسالة له فى القضاء توج بها مجهوده الكبير .

وفى سنة ١٩٤٧ عين رئيساً لإدارة قضايا الحكومة فنهض بعبئها الجسيم ضارباً المثل لكبار أعضائها ، بأن محامى الحكومة — مهما علا مركزه — مكانه ساحة المحاكم لا مكاتب الإدارة، فكان يترافع بنفسه فى القضايا الهامة مما جعل للإدارة شأناً لم يكن :

وقد أضاف الزميل إلى هذا السجل الحافل فى مجال القانون أثراً جليلا فى فقه القانون المدنى، وذلك بمؤلفه القيم فى « المسئولية المدنية » الذى تناول موضوعاً من أدق مواضيع القانون وأشدها تعقيداً وسد بذلك فراغاً فى المراجع القانونية ، إذ أصبح الكتاب مرجعاً الكل المشتغلين بالقانون حتى لقد أعيد طبعه مراراً.

وبعد مجالا القانون يأتى مجال كفاحه فى سبيل الشئون العامة الذى تصدى له منذ أن ولى الوزارة فى سنة ١٩٤٨ ، ثم وليها فى سنة ١٩٤٩ وكان عضواً بمجلس الشيوخ فى ذلك الحين فجعله ميدان كفاحه، كما إتصل قلمه بالصحافة وقد حوت مضابط مجلس الشيوخ ما كان له من جولات ، كما حوت الصحف العديد من مقالاته — وقد وعى التاريخ كل هذا وطوى، هذه الصفحة من بين ماطوى، وهو صاحب القول فيها ، وقد عودنا العدل والإنصاف ولو بعد حين .

هذه المقالة موجزة كل الإيجاز عن هذه الشخصية الكبيرة المعددة الجوانب ، أرجو أن أكون قد وفقت فى إبراز شئ من معالمها .

●●● كلمة المرحوم الأستاذ عزيز أباظة * :

أيها الزميل الكريم

هناك فى أحضان الريف اليانع الوارف ، وعلى مقربة من ملتقى البحر المتوسط بالنيل الرافد الخالد ، هناك ولدتَ ونشأت ، وحين شارفت الخامسة خرجت صباح يوم ربما لم تحمده ، خرجت إلى كتاب القرية الوادعة من بيتك الكريم ذى الفناء القصود والورد المورود . وقذف بك كما قذف بنا نحن أهل الريف إلى ذمة سيدنا فقيه الكتاب . وإلى أيدى رائدنا عريف الكتاب . وتسلمت كما تسلمنا لوحك من الصفيح المصقول أو غير المصقول : وطولعت بهوز قرشت . ورأيت بعينك كما رأينا — الفلقة والعصا ، وما أعظمهما من مؤدبات ، زاجرات أو معاقبات . ثم بدأت بخير مايبدأ به الإنسان حياته ، ذلك هو حفظ قدر كريم قل أو كثر من كتاب الله أنزله هدى للبشر على من أرسله رحمة للبشر : وأغلب الظن أنك حين من الله عليك فأتممت حفظ ثلاثة الأجزاء عم ، وتبارك ، وقد سمع ، زايلت الكتاب بين هالة من فخر الفقيه والعريف ، إلى المدرسة الابتدائية ثم إلى المدرسة الثانوية

وأغلب الظن أنك كنت تلميذا مرموقا أو ولدا نجيبا كما كان يقال فى ذلك العهد ولم لاتكونه فإن النجابة قد تتلامح فى السن الباكرة إرهاصا لغد سعيد ، ومستقبل مشهود :

وتلاقينا فى مدرسة الحقوق . وكانت الثورة الكبرى قد اندلعت فى البلاد عامة ؛ يظاهرها ويؤازرها ويحترق فى أتونها المقدس أهل البلاد أجمع . ثم اختلف زعماء البلاد ، رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم . اختلفوا أى التدابير أسرع وأكفل لتحقيق آمال البلاد وصونها . وأيها فى هذه الغاية أحكم وأهدى سبيلا .

وكان طلبة مدرسة الحقوق فى طليعة الطلبة الثائرين المجاهدين . وكانوا جميعا إلا قلة قليلة منهم يؤمنون أصدق الإيمان بزعامة الزعيم الخالد سعد زغلول : تستهويهم ، وتسحرهم كلمته . ولم أكن منهم. وكان مقهى مدرسة الحقوق ندوة للطلبة ، يأتمرون فيه ويتشاورون : وذات صباح كنت جالسا بهذا المقهى ، وعلى قيد خطوتين منى جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الأحاديث. ويتناقلون فى الخطط والتدابير ، وإذا بواحد

* كان المرحوم الأستاذ عزيز أباظة قد أعد هذه الكلمة ليلقيها فى حفل استقبال صديقه وزميله الأستاذ مصطفى مرعى ، ولكن رحمة الله استأثرت به قبل القاء كلمته فألقاها الأستاذ ثروت أباظة .

منهم صحت بعد ذلك بينه وبيني الصداقة — رحمه الله يقول ، وهو يشير إلى بإيماءة طرف لم يخفها : احترسوا فإن إلى جوارنا خصما لنا ، ولاجتماعنا غير مأمون العواقب : ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا الرأى ولكن واحدا منهم اعتورت طلاقة وجهه مسحة من العبوس ، ثم أجال نظرات فى إخوانه جميعا ، ثم بدأ يتحدث فى هدوء وخفوت . تحدث عاتبا ثم لائما ، ثم أخذ يتناول حرية الرأى وحرية التعبير ، وحرية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يتلاءم مع نفسيته واقتناعه مدافعا عن ذلك الذى وجهت إليه تلك الإشارة النابية . وحين عورض اندفع فى صوت متهدج يؤيد آراءه ويقول : إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة ، وبرهان على محاولات كريمة تنشد الوصول إلى الحق . ولست أذكر ماقاله ذلك الزميل على وجه الدقة ، ولكننى أذكر كلمة كأنما سمعتها منه أمس . قال : فليؤمن كل منا بما آمن به وهذا خير ؛ أما عبادة الأشخاص ، والتسابق على تأليه مايقولون وتقديس مايصنعون ، فإنها علامة إسفاف متهافت يصيب الأمم والشعوب . ثم قام والغضب والأسف فى وجهه ملامح .

أتعرف هذا الشاب أيها الزميل الكريم ، إن لم تكن تعرفه ، فاسمح لى أن أقدمه إليك ، إنه مصطفى مرعى . ومنذ هذا اليوم تآلفنا ، فلم يدخل بيننا والحمد لله شيطان إلى الآن .

ثم قذفت بنا إلى الحياة العامة مدرسة الحقوق سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف ، وكنت كعادتك فى أوائل الخريجين . أولئك الأوائل الكرام الذين كان لهم فى خدمة العدالة والقانون فضل ممدود ، وشأن مشهود . ولقد سمعت بأذنى المستشار « كالوينى » يقول لعبقرى القانون والعلم والأدب عبد الحميد بدوى ، وكانا يمتحنان فى فرقتنا فى القانون المدنى ؛ سمعته بعد أن امتحن واحدا منكم يقول : هذه فرقة لم تخرِّج مدرسة الحقوق فرقة تماثلها منذ أخرجت فرقتكم عام ثمانية وتسعمائة وألف . فقد كان فيها إلى جانبك « محمد أحمد الوكيل » و« عبد المعطى الخيال » و« محمد على رشدى » و « محمد أحمد غنيم . » رحمهم الله ؛ « ومحمود فوزى » و « محمد نجيب أحمد » أطال الله فى حياتها . ولقد سرنا وعزانا نحن الذين جاء ترتيبنا بعدكم بمدى طويل أن تكرم فرقتنا بهذه الشهادة الكريمة من خبير كبير .

ثم اخترت المحاماة أيها الزميل الكريم ؛ فزاولتها بالإسكندرية . ثم عينت قاضيا بها سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف . وأظنك لم تمكث طويلا مكتفيا بعمل القاضى من دراسة إلى حكم ولكنك بعد أخذ ورد مع نفسك ، فى هدأة حينا ، وفى ثورة أحيانا ، انتقضت قاضيا متعباً لأنك ألزمت نفسك بمهمة غير مألوفة لافى وقتها ولافى نوعها : طالبت بإصلاح مراحل القضاء وبتحقيق الأمن مع الكرامة لرجال القضاء . واخترت من

رأيتهم أهلا لمعاونتك ، ولما قضت الظروف على صحبك أن يكفوا عن معاونتك ، نهضت بالعبء وحدك فكتبت التقارير والبيانات يتنافس فيها الإقدام والإحجام ، وبعثت بها لقضاة البلاد جميعا ممهورة باسمك وحدك . ألم أقل لك إنك كنت قاضياً متعباً . ولقد كان جزاء هذا القاضى المتعب بعد أن بلور نظريته ، وضرب ضربته ، أن نقل من الإسكندرية قاضيا لإطسا .

ثم رأس الحكومة عارف لفضلك ، فعينت متخطيا زملاءك والسابقين على زملائك مفتشا فى لجنة المراقبة القضائية ، ثم استقلت عام ستة وثلاثين ، فسعى إليك مكتب محاماة من أكبر مكاتب البلاد وأكثرها عملا فانضممت إليه محاميا ، ثم عينت عام تسعة وثلاثين محاميا عاما ، ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف ، ثم مستشارا فى محكمة النقض . ولقد كادت سنك أن تحول بينك وبين هذا المكان الكبير . وبعد أن أمضيت مستشارا بمحكمة النقض عامين ، عينت رئيسا لإدارة قلم قضايا الحكومة لتعود بسمعتها ومكانتها إلى ما كانت عليه أيام عبد الحميد بدوى ، وبقيت بها إلى عام ثمانية وأربعين ، حيث عنيت وزيرا فى وزارة ابراهيم عبد الهادى . ثم عينت وزيرا مرة أخرى فى وزارة « حسين سرى » . ثم مر على البلاد من حوادث وأحداث ما دفعك أن تكون وزيرا متعبا كما كنت قاضيا متعبا .

لم تكن وزيرا من الوزراء الذين يشدهم كرسى الوزارة أسفل ، وكثير من هم . ولم تكن من الوزراء الذين هم أشبه الناس بالسكرتيريين ، وأكثر من الكثير من هم بل كنت وزيرا عرف قدر نفسه ، وقدر مسئوليته ، فكنت تقول : لا مجاملة حين يقتضيك ضميرك أن تقول : لا ، وكنت تقول نعم ، حين يقتضيك ضميرك أن تقول : نعم . غير آبه بملك قائم ، وقصر حاكم ، وتهديد جاثم . ولم تكن وزيرا يكتفى فى كبرى مصالح الدولة بما يعرض عليه . بل كنت وزيرا تقرر مايجب أن يعرض عليه ، وكنت فى مجلس الوزراء محركاً ، دافعاً عند ثبوت المنهج الصالح ، كما كنت قابضا مانعاً عند تلامح الهدف الواضح . وكنت نورا لمن يريد أن يستنير . وكنت كفيلا لمن يعمل منهم ، فإذا انتحاه اللوم نسب إليك التوجيه والتدبير .

وكنت وزيرا متعباً ، بل ثائراً ، حين ضاقت فى وجهك السبل لإصلاح الفساد الذى استشرى بهذه البلاد ، فى أواخر العهد الملكى تحدثت وناقشت ثم شكوت ثم نفذت . ثم خرجت من النقد إلى لوم عاصف ، وتجريح قاصف . وحين آنست أن الطريق أمام آرائك مسدود ، وأن الوزارة التى أنت عضو فيها تخاذلت عن هدفك المنشود . وتلدّدت بين أعاصير الوعيد ودفاع الوعود ؛ حين آنست ذلك ألقيت باستقالة لم يعرف تاريخ الاستقالات لها مثيلا . قلت فيها بأسلوبك

الرائع القائم على إخلاص ذى غور عميق ، واقتناع ذى أس وثيق ؛ قلت مخاطباً رئيس الحكومة :

حضرةَ صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء :

تحية ، وبعد ، فإنك تعلم كما يعلم غيرك ، أننى إنما اشتركت فى حكومتك على أمل فيك ، أن لك غاية هى جمع الكلمة ، وضم الصفوف ، وأن لك هدفاً ، هو الاستعانة بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطر من مشاكلنا الخارجية والداخلية . وقد تبين لى أنك لا تبغيا هذه الغاية ، ولا تتوسل بوسائلها ؛ بل إنك لتبدو كما لو كنت مسلطاً لتجعل من كل حزب حزبين ، وكل فرقة فرقتين .

وقد رأيتك بنفسى ترى الرأى للحق وتنقضه للباطل ، وتقول الكلمة وتنكرها ، ولم يقع ذلك مرة واحدة فى تافه من الأمر ، بل وقع مرارا وفى الخطير من شئون الدولة .

أما لفظك ، وأما عبارتك ، وأما أساوبك فى إدارة مناقشات مجلس الوزراء ، فقد أصبح هذا كله ، مضرب الأمثال ، وموضع التندر فى كل مكان .

لهذا أحيطك علماً باعتزالى العمل فى الوزارة ؛ والله المسئول أن يدفع عن بلادنا السوء ، وأن يقيها غوائل الفساد .

ثم اتخذت الصحف وسيلة لإعلان رأيك ، وتبيين خططك واشتركت فى تأسيس اللواء الجديد ، فكتبت وكتبت متذرعاً بصدقك ، ملقياً بلألائك على سود الصحف ، التى كان يضربها على البلاد أكبر رأس فى البلاد . وكانت مقالاتك تنقض على رؤوس الحاكمين ، فى نقد ثائر ، ولكنه ساخر . وفى أسلوب يهدى لما هو أكرم وأصلح ؛ ولكنه على قسوته يدمى دون أن يجرح ، ومما أذكره قولك :

« إننا لا نتجر فى السياسة ، ولا نساوم عليها ولا نبيع أقلامنا ولا نؤجرها . إننا لا نخشى فى الحق لومة لائم ، مهما يكن مقامه . ولا غضبة غضوب مهما تكن سطوته . وإننا لنعرف أن الشر راصد للأحرار فى مصر ، فاغرفاه ، يود لو استطاع أن يبتلعهم واحداً بعد الآخر . لكننا نعرف ، مع ذلك ، أن الكلمة الحرة الصريحة الجريئة ، هى ألزم ما يلزم مصر اليوم .

ولقد قال « اللواء » — ولا يزال يقول — كلمات لها هذه السمات ، وفيها هذه الخصائص إن لم تكن قد هزت ضمائر الطغاة ، فإنها من غير شك ، قد قرعت منهم الأسماع ولفتت الأنظار .

ومن يدرى . . . لعل الذى نقوله غدا ، أو بعد غد ، يكون أبعدَ غورا وأشد وقعاً من كل ما قلناه حتى الآن ، فقد يلزم أن تتضاعف جرعة الدواء ، إذا لم تنحسر موجة الداء ، وأن تزداد قوة المقاومة ، كلما ازدادت قوة الاعتداء . فأدواؤنا تقوى مع الزمن ولا تضعف ، وتتسع دائرتها ولا تضيق ، وتشتد قبضتها ولا تتراخى . وأنها — على

اختلاف أنواعها — لتتساند وتتآخى : كما يتساند الأشرار فى ظل الشيطان ، حيث يتبادلون النفع ويتعاطون الحرام .

وها هى ذى الديكتاتورية البغيضة الطاغية ، تمكن للحكم الفاسد وتعينه ، وتمده بأسباب البقاء : وها هو ذا الحكم الفاسد بدوره يهش للديكتاتورية الباغية ويبش ، ويتصاغر أمامها ويتقامأ ، وإنه ليذل لها ويخضع ويلين ثم ينحنى .

ومن على ينظر الإنجليز . . بل ينظر العالم كله إلى شعبنا المسكين محصوراً بين هذين الأمرين نظرة استخفاف وازدراء .

هذه هى مصر اليوم ؛ ما أحوجها إلى الكلام الحر الجرىء ، عسى أن يهز ضمائر سادتها فيعودوا إلى الرشد ويثوبوا إلى الصواب ، أو يهز شعور الأمة المغلوبة على أمرها ، فتثور لتسترد حقوقها المغصوبة وسلطانها الضائع :

وإن يوماً يتحقق فيه هذا الأمل ، أو ذاك .. ليكونن لمصر مطلع فجر جديد " .

وداولتَ أيها الزميل بين مقالاتك فى الصحف ومواقفك فى مجلس الشيوخ ، تلك المواقف التى توجت باستجوابك عن مأساة الأسلحة الفاسدة ، مما أدى بأخرة إلى طردك من مجلس الشيوخ مع تسعة عشر من إخوانك ، فكانت جريمة دستورية طاغية ، هبطت بالعهد إلى الهاوية ، وسهلت على السائلين مهمة إنهائه ، والإجهاز على أشلائه .

أما أنت محامياً ، وعلى الأخص بعد تمام العدة ، واكتمال النضج ، فإشراقة تكاد تنقطع دون وصفها علائق الأقلام ، وقلائد الكلام . فأنت بالعلم الواسع ، والخاطر الحافل ، والذهن الحاضر ، والوميض المقدس تحت السطوح بصائب النظرة ، والأسلوب الحلو المستحكم المحصد والقدرة على الإبلاغ فى غير تحبس ولا توقف ولا تلجلج ولا طول معاناة ومقارفة ، وبالحس السادس تتفطن به إلى مطاوى العيب . . . أنت بكل هذا الذى تحريته ، وبغير هذا مما تركته ، قد بلغت فى المحاماة أعلى مشارف قيمها . ولست أود أن أطيل فى هذا الباب ، حتى لا يقال مأفون يدلل على انهلال النهار فى وضح النهار ؛ ولكن الذى يقع فى ذمتى أن أثبته ، أن هذه البلاد قد كرمت بعدد من أقطاب المحامين وعباقرتهم . فإذا ذكر « أحمد لطفى » و « عبد العزيز فهمى » و « أحمد عبد اللطيف » و « مرقص فهمى » و « وهيب دوس » ، إذا ذكر هؤلاء العماليق ، تخلل جمعهم « مصطفى مرعى » ثابت القدم ، مرفوع الهامة . و دخل فى زمرتهم ، لا دخول الدخيل ، ولكن دخول الزميل المثيل الأصيل .

وأما كتابك . ولا أقول مذكرتك التى قدمتها لمجلس الدولة عام اثنين وخمسين ، فى قضية من قضايا الإحالة على المعاش لها ظروفها العجيبة ، ووطائدها المعيبة ؛ هذه المذكرة ، بل هذا الكتاب ، يرتفع إلى أعلى مشارف إقرار حق الإنسان .

وبيان الحق أواللاحق فى تصرف الدولة قبيله . وذلك داء استشرى فأذل الناس وهدر حقوقهم ، إذ كان وما يزال ينفث سمومه بغير ما ضابط من عدل أو وازع من خلق ، ويتراءى لى أن الفساد وأداة الحكم فى بلادنا هذه الكريمة ، هما توأمان عريقا النسب ، يسلمهما عهد إلى عهد ، وحكم إلى حكم . حتى ليستطاع فى غير تزيد ، أن تذكر أداة الحكم فيذكر تلقائياً معها الفساد ، فيقالا متعاقبين ، الفساد وأداة الحكم ، كما يقال : العُجَر والبُجَر ، والبر والبحر ، وزفتى ومية غمر .

ولقد جلوت هذا الموضوع الخطير فلم تر مزلقاً إلا كشفته ، ولا طغياناً إلا فضحته ، فأرسيت أصوله ، وأصَّلت جباهه وذيوله ، كل ذلك إلى جانب الأسلوب المشرق ، والتعبير المحكم المحصد لقانون الحق وقانون البطش بالحق .

ولقد اجتزأت من مئات مذكراتك ذات الوعى السديد الدقيق ، والعمق البعيد السحيق ، التى كان يتلقفها القضاة والمحامون ، بهذه المذكرة لأنها كانت دراسة فذة لقانونيين نعرفهما حق المعرفة : قانون الحق ، وقانون البطش بالحق .

أما كتابك « المسئولية المدنية فى القانون المصرى » ، الذى أصدرته فى يونية من عام ستة وثلاثين . فأول مايُبْدِه القارئ فيه هو شعورك أنت بالمسئولية ومعناها ، وأبعادها ، وأغوارها ، فتقول فى مقدمة الكتاب : ما أحسب أن مسئولية توازى فى خطرها وجسامتها ، مسئولية المؤلفين على وجه عام ، ومسئولية مؤلف القانون على وجه خاص : من أجل ذلك تهيبتُ المطبعة وترددت فى طريقى إليها .

وقد جاء كتابك أولا من نوعه فى المؤلفات القانونية ، الدائرة حول موضوع واحد لم يسبقه إلا أبواب متفرقة هنا وهناك .

والكتاب على قدم العهد به نوعاً ما ما زال المرجع الرئيسى لهذا الموضوع الضخم المتشابك ، الذى زادته المدنية انتشاراً ، فقضت به دور المحاكم وارتكز عليه القضاة فى أحكامهم .

وسيبقى هذا الكتاب الفريد ، مرجع رجال القانون ، ما دام مقدرا أن توزن بموازينها الحقة هذه الموضوعات . وسيظل القضاة ينظرون إليه كلما عرضوا للخطأ بأنواعه ، وللتقصير فى شتى أشكاله ، وإصلة الإرادة والتمييز والإدراك بالخطأ والتقصير . كما سيظلون ينظرون إليه إذا عرضوا للخطأ تحت ستار الحقوق ، والمسئولية عن الغير تلك التى يحمل عبئها الآباء والمعلمون وأرباب الصناعة ومالكو الحيوان والمبانى ، كما سيظل ينظر إليه كل من تعرض عليه قضايا الحريق وحوادث العمل وما إليها ، وسيظل هذا الكتاب عماداً من أعمدة القانون ، ما بقيت دعاوى التعويض ، وستبقى دعاوى التعويض ما بقى للإنسان حق أو أثر .

أيها الزملاء الأجلاء .

إن فى زميلكم « مصطفى » مزايا سامقة ، قلما تجتمع متكاملة إلا للموهوبين وقليل منهم.

إنه يعرف الكثير ، وإنه ليجهل الكثير .

إنه يعرف دينه كما أنزله الله، وكما سنّه له محمد بن عبد الله . ويتجافى بعد ذلك عما تفهق فيه المتفيهقون، وغرق فى لجه المتحذلقون .

إنه يعرف فى علمه الذى تخصص فيه وهو القانون ، يعرف أصوله وفروعه وحواشيه وذيوله ، وما اتفق فيه عليه المتفقون ، وما اختلف فيه المختلفون ، وله فى كل ذلك رأيه القائم على أثبت الوطائد ، وتخريجه النابع من أسلم الموارد؛ إنه يعرف من علوم الإنسانية وأدبها وفنها ، أدخلها إلى العقل ، وأقربها إلى النفع ، وأعودها على الكمال الإنسانى بالفائدة ، تسمو أقدارها ، والموعظة تتراقى أخطارها .

إنه يعرف أن الكلام فى موضع الصمت فضول وهذر ، ولا يعرف أن يتصدى لما لا يفى به ، ولا يتسع له ، ويعرف أن السكوت فى موضع الكلام لُكْنَة وحَصَر؛ إنه يعرف الصداقة والصديق . وإنه يعرف البِرَّ بمَن ، والفضل مِن غير مَن ، كل ذلك فى رفاهة حس ، ووضاءة نفس .

ويعرف أن يستمع وأن يقول ، فإذا قال فلا تزيد ولا تحيف ، وليس إلا الكلمة تنفذ إلى حيث يريد لها أن تنفذ، طبّا بها عليما بكل معانيها . وإذا ترافع فتفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ ، وترديد ما له من نديد .

إنه يعرف أو يكاد لكل معضل حلوله ، ولكل حق دليله ؛ ولكن الذى لا يعرفه « مصطفى » كثير وكثير .

إنه لا يعرف أن يقول لمبطل آمين ، ولو كلفه ذلك قطع الوتين .

إنه لا يعرف أن يقول إلا إذا تلاحمت فى نفسه أواصر اليقين .

إنه لا يعرف للرجل وجهين ، ولا للحق ميزانين ، ولا للكرامة صورتين ، ولا لقيمة الإنسان معيارين .

وإنه من القلائل الذين لا يعرفون للمال قدراً عند الخدمة العامة ، فهى عنده قيمة وخلق وضمير .

إنه لا يعرف أن يقبل قضية لم يقتنع بها ، فهو يطرد المال الساعى إليه من هذا السبيل ، بل ليخال هذا النوع من الجزاء أفاعى تسعى لا مالا يساق ، وهو لا يعرف أن يحتج بغير الصدق ، جل عنده الكلام أن يكون صنعة ، وتنزه أن يكون تكلفاً ، فهو حين يقول يجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين الصدق والأصالة.

ورجل القانون عنده لا بد أن يجمع بين الأدب الرفيع والعلم العميق ، وهو من الذين يؤمنون أن رجلا لا يحسن أن يقول ، لا يحسن أن يكون شيئاً فى أى شئ .

إن المقاييس التى يقاس بها « مصطفى » تتعدد تعدد جوانب النبوغ فيه ، وهيهات لهذه أو تلك وهيهات أن يلم بها حديث مهما يطل هذا الحديث .

أيها الخالدون :

لقد أضفيتم عليه بالغ التقدير والتوقير ، وآيةُ ذلك أنكم لم تقفوه كعادتكم عند بابكم ، وطالما وقفتموني وغيرى دورات ودورات عند بابكم ، ولكنكم عند أول دقة دقها عارفو فضله ، فتحتم له مصاريع محرابكم . وكنتم أعزكم الله عند دعوتنا الجواب . صيغ فى بالغ التأهيل وخالص الترحاب .

●●● الكلمة التى ارتجلها الأستاذ مصطفى مرعى :

السيد الرئيس

السادة الزملاء

سيداتى ، سادتى

ما تهيبت الكلمة ولا أشفقت منها ، كما تهيبتها وأشفقت منها هذا المكان ، وأنا لست طارئاً ولا دخيلا على صناعة الكلام ، فقد خاطبت المحاكم على اختلاف درجاتها حين كنت محامياً ، خاطبت الطلبة فى حلقات الدرس حين كنت أحاضر فى كلية الحقوق ، خاطبت مجلسى الشيوخ والنواب حين كان لنا برلمان ، وكان لى أن أمثل الحكومة فى المجلسين ؛ هناك فى المحاكم أو فى حلقات الدرس أو فى البرلمان ، كانت الفكرة هى الغاية لا اللغة ولا الألفاظ ، هناك كانت المعانى لا المبانى هى قصد السامع والمتكلم على حد سواء ، هناك كان وضوح الفكرة يغطى أخطاء اللغة ، هناك كانت طلاقة اللسان تحجب عثرات اللسان ؛ هنا الأمر يختلف ، هنا اللغة لا تقل أهمية عن الفكر ، هنا سلامة اللغة هى المقياس الذى يقاس به حسن الكلام ، هنا قلعة الفصحى ومنارة الضاد ، هنا أريد أن أتكلم فلا يسعنى إلا أن أقف خاشعاً أمام أئمة اللغة وأعلام البيان .

وقد سألت نفسى حين علمت أنكم أردتم لى أن أكون معكم فى هذا المحراب ، سألت نفسى هل البقية الباقية منى قادرة على أن تحقق أمل الكرام الذين أحسنوا الظن بى ؟ هل البقية الباقية منى قادرة على أن تحملنى لألحق بركبكم الميمون فأعانى معكم كما تعانون ، وأضطلع بينكم ببعض ما تضطلعون ؟ وقبل أن أصل إلى جواب عن هذا السؤال ، سمعت صوت السبعين يحذر من جهة وينذر من جهة أخرى ، لا لأن السبعين عليها بأس فى ذاتها ، ولكن لأن العشرين الأخيرة منها ، كانت بالنسبة لى فترة تشتت وتمزق وضياع ، كنت مغتر باً بالجسد بين الحين والحين ، مغتر باً بالروح فى كل الأحيان ، كنت مغتر باً بالمعنى الذى أراده أبو حيان التوحيدى حين

قال: «أغرب الغرباء من صار غريباً فى وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً فى محل قربه ؛ لأن غاية المطلوب أن يسلو عن الموجود ، وأن يغمض عن المشهود ، وأن يقصى عن المعهود » . كلمات التوحيدى هذه قد تبدو خائفة حذرة مبهمة غامضة ، ولكن الطبع فوق التطبع ، وكان التوحيدى جريئاً بطبعه لم يلبث أن قال :

« يا هذا الغريب من إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر ، يا رحمتا للغريب ، طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى » ؟

والذى لا شك فيه أن التوحيدى نفسه كان مغتر باً بالمعنى الذى تصوره عباراته هذه ، والذى لا شك فيه أنه إنما كان يعبر عن آلامه وآلام من كانوا على شاكلته من بنى قومه حين قال ما قال ، ذلك لأن عصره كان عصر طغيان فشا فيه ما يفشو عادة فى عصور الطغيان ، من ظلم وبغى وكذب وكيد ونفاق وضلال :

وهو يقول فى ذلك : « إلى متى نعبد الصنم بعد الصنم ؟ إلى متى نقول بأفواهنا ، ما ليس فى قلوبنا ؟ إلى متى ندعى الصدق والكذب شعارنا . . . . إلى متى نستظل بشجرة تقلص عنا ظلها ؟ إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشقاء فيها ؟

من خلال هذه السطور نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يلقى القفاز فى وجه الطغيان ، ونستطيع أن نراه فى الوقت نفسه وهو يضع أوراقه مكشوفة على مائدة المعرفة ليقرأها من شاء متى شاء .

ومن خلال هذه السطور أيضاً نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يجول جولة رائدة رائعة فى علم النفس قبل أن يعرف علم النفس ، وفى علم الاجتماع قبل أن يعرف علم الاجتماع ، وفى علم نفس الجماعات قبل أن يعرف علم نفس الجماعات .

وقد أتاحت له هذه الجولة أن يكشف النقاب عن مرض اجتماعى خطير هو الاغتراب أو الانفصال الذى يفصل المواطن عن وطنه حين يسوء حال هذا الوطن وتضطرب أموره ويجرى الفساد فى أنحائه وتضيع كلمة الحق فيه .

ومضى التوحيدى ومضت بعده قرون ، وجاءت فى عصرنا الحاضر أجيال ساخطة على النظم التى تحكمها ، رافضة لها متمردة عليها . وأخذ علماء الغرب يبحثون فى هذه الظاهرة ليصلوا إلى علتها . فإذا بفريق منهم لا يرى لها علة إلا العلة التى كشفها التوحيدى. ولا يجد لهذه العلة اسما إلا الاسم الذى قال به التوحيدى وهو الاغتراب ، ترجموه إلى الإنجليزية فصار (alienation) وإلى الفرنسية فصار (alienation) . ولا أظن أن توافق الخواطر هو الذى أدى إلى هذا اللقاء

بين الشرق والغرب لأعلى نوع العلة فحسب، بل على نوعها واسمها معاً . وإنما هى بذرة أو حبة مباركة التقطها علماء الغرب فيما التقطوه من التراث العربى ولا عليهم إذا أفادوا منها متى كانوا قد سبقوا غيرهم إلى كشفها والإحاطة بأسرارها .

أخشى أن أكون قد استطردت ، لكن الهدف هو أن أشعركم ببعض ما أعانيه . ولو التزمت الترتيب العاطفى لا الترتيب المنطقى لبدأت حديثى بفجيعتى فى أخى وأخيكم عزيز أباظة . أقول فجيعتى وأنا أعلم أن موت عزيز قد فجع مصر كلها ، بل فجع العالم العربى كله ، وقد لا أبالغ إذا قلت أن موت عزيز حرى أن يفجع كل إنسان بما هو إنسان فى كل مكان .

أقول فجيعتى مع ذلك ، ورغم ذلك ، لأن عزيزاً لم يكن زميلا فحسب ، وإنما كان صديقاً عاشت صداقته خمسين سنة عطرة نضرة ، لم تلحق بها شبهة ولا شابتها شائبة وإن أنس

لا أنسى نداءه لى حين كان يلقانى فيقول : « يا صديق العمر » . إنى لأتفجع على « عزيز » ، وإنى لأعلم أنكم تتفجعون معى ، لأن خسارة مجمعنا بفقده خسارة لا تعوض ، فقد تعددت مزاياه ، وتنوعت مواهبه ، كان عالماً وهو أديب ، ناثرا وهو شاعر ، كاتباً وهو خطيب . ولقد اجتمعت له هذه المزايا كلها لا لتختلف ولا لتتنافر ، ولكن لتأتلف وتتراحم ، كما لم تأتلف وكما لم تتراحم لدى أى كاتب آخر :

وإذا كان قد حلّق فى سماء الشعر وانتهى فيه إلى القمة ، فاستحق عن جدارة أن يكون أميرا عليه بعد شوقى ، فذلك لأن الشعر عاطفة قبل كل شئ ، وعاطفة « عزيز » هى التى فجرت ينابيع الشعر فى قلبه ، ومن هنا كان شعره المهموس الذى يعبر عن وجدانه الذاتى شعراً لا يجارى . ومن هنا أيضاً كانت الأنات آية من الآيات ؛ وبعد العاطفة يأتى الخيال فيما يقتضيه الشعر : و « عزيز » كان له من حسن التخيل أوفى نصيب ، أما اللفظ الرشيق ، أما التصوير الدقيق ، أما التشبيه البديع ، أما النغم الحلو ، فقل فى ذلك كله فى جانب « عزيز » أكثر مما قيل وأكثر مما يمكن أن يقال فى جانب أى شاعر آخر من شعراء عصره .

السيد الرئيس ، إخوانى :

يقع على نزولا على تقاليدكم أن أستحضر اللغة لتكون معنا بأن أعرض عليكم مسألة من مسائلها . وقد اخترت لهذه الغاية مسألة اللغة والحضارة ، ذلك لأننى رأيت بين المفكرين من يقول إن اللغة مرآة تعكس حضارة عصرها ، وتسير فى ركابها . تابعة لها تسمو بسموها ، وتهبط بهبوطها ، وهذ القول قد يفتح الباب للظن بأن دور اللغة فى بناء الحضارة أدنى إلى السلب منه إلى الإيجاب ، وهو قول تنقضه الحقيقة العلمية ؛ ولكى ندرك هذه الحقيقة يكفينا أن نعرف ماهى

الحضارة ، ثم نعرف مبلغ اعتمادها على الفكر ، وأخيرا نعرف مبلغ اعتماد الفكر على اللغة .

أما الحضارة فهى كما يقول المعجم الوسيط : «مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر » :

أما اعتمادها على الفكر ، فآيته أن الحضارة لم تخط خطوة واحدة فى تاريخها إلا كانت وراءها فكرة تحركها وتمسك بزمامها . !

وأما اعتماد الفكر على اللغة ، فإن الفكرة تظل حائرة فى ذهن صاحبها ، حتى تجد اللفظ المناسب لها فتستقر وتثبت وتتحدد عندئذ ، وعندئذ فقط يمكن الاحتفاظ بها فى الذاكرة كما يمكن الانتفاع بها فى الفهم والتفاهم .

إذا كان ذلك ، وكان لا بد للحضارة من الفكر ، وكان لا بد للفكر من اللغة ، أقول إذا كان لا بد للحضارة من الفكر ، لأنه هو الذى يحركها ويمسك بزمامها ، ولا بد للفكر من اللغة لأنها هى التى تجسده ، كان مقتضى ذلك ولازمه أن تكون اللغة ركناً من أركان الحضارة ، لا مجرد مرآة تعكسها أو مجرد تابع يسير فى ركابها .

واللغة المقصودة هنا ، هى الفصحى ، والفصحى وحدها دون سواها ، لأن غاية العامية وقصاراها أن تعبر عن حاجات البيت والطريق والسوق ، أما حاجات العلوم والفنون والآداب وما إلى ذلك من وجوه المعرفة ، معرفة الإنسان فليس لها إلا الفصحى ، وحيث تتصارع اللغتان ، والصراع هنا حتم يفرضه قانون تنازع البقاء وحيث يقع هذا الصراع بين اللغتين : الفصحى والعامية ، فإن ما تكسبه الفصحى يكون كسباً للحضارة ، وما تكسبه العامية يكون عبئاً على الحضارة وقيداً يقيد خطاها .

ولما كانت الأمية هى مصدر العامية ، فقد صار محو الأمية علامة من أبرز علامات الحضارة ، ومقياساً من أدق مقاييسها ، وإذا قسنا حضارتنا بهذا المقياس ، فإننا ننتهى مع الأسف الشديد إلى نتيجة تفدح النفس وتقهر القلب ، لأن الأميين عندنا يمثلون ثلاثة أرباع السكان ؛ كانوا كذلك منذ عشرين عاماً ، وهم كذلك الآن ، ولا تسألوا أين أجهزة التعليم ؟ لأن الجواب حاضر ، تقف عاجزة العجز التام عن أن تنال من هذه النسبة منالا .

أما شاهدى على هذه النسبة فهو بحث قيم كتبه الكاتب الأديب « الأستاذ لويس عوض » فى صحيفة « الأهرام » ، فى عددها الصادر فى السادس والعشرين من فبراير سنة واحد وسبعين ، وقد جاء فيه ما يأتى :

« ورثنا عن مصر الملكية نسبة من الأمية قوامها ٧٥ ٪ من مجموع السكان ، وكان يقدر بنحو ٢٠ مليوناً ، ونحن الآن بعد ٢٠ عاماً ورغم ارتفاع ميزنية التعليم إلى نحو مائة وعشرين مليوناً من الجنيهات سنوياً

لا نزال نحافظ على نسبة من الأمية قوامها نحو خمسة وسبعين فى المائة من مجموع السكان » .

قد لا ترضينا هذه الأرقام لأنها لا تساير آمالنا ؛ ولأنها تخدش كرامتنا واعتزازنا بأمتنا ، لكن الأدلة أجمعت على صحتها . فقد عهدت فى كاتبها الأمانة والدقة والشعور بالمسئولية ، وهو إلى ذلك كاتب ملتزم ، وقد نشرتها صحيفة الأهرام وهى ملتزمة أيضاً . والالتزام له مفهومه الذى لا يخفى عليكم : وقد لاذت أجهزة التعليم أمامها بصمت مطلق فلا هى أنكرتها ولا هى نازعت فيها .

وإذا كان ذلك ، وكانت هذه الأرقام صحيحة ، كان لى أن أقرر بناء عليها والأسى يملأ قلبى أننا نعيش فى مجتمع أمى ؛ لأن العبرة فى الأحكام على المجتمعات بالكثرة لا بالقلة : نعم ، نحن نعيش فى مجتمع أمى ، وهذا يعنى أننا نعيش فى مجتمع أطبق عليه الجهل ، وهو يعنى أننا نعيش فى مجتمع يغشاه الظلام فى أوضح ساعات النهار .

ومن هذه الحقيقة المؤلمة نستطيع أن نتبين العلة المسئولة عن سائر العلل التى نشكو منها فى حياتنا كلها :

فالأمية هى المسئولة عن الانفجار السكانى الرهيب الذى يهددنا بأوخم العواقب . وقد ثبت أن متوسط إنجاب الزوجة الأمية فى الريف تسعة أطفال ، بينما متوسط إنجاب الزوجة المتعلمة يتراوح بين أربعة وخمسة أطفال :

والأمية هى المسئولة عن هبوط مستوى الإنتاج ، لأن العامل المتعلم ، زارعاً كان أو صانعاً ينتج أضعاف العامل الأمى . ومن هنا تغيرت النظرة إلى العلم فى العالم كله شرقه وغربه ، فقد أصبح العلم وجهاً من وجوه الاستثمار ، وكان من قبل خدمة من الخدمات:

والأمية هى المسئولة عن هبوط مستوى الثقافة العامة ، لأن مصانعة الكثرة الجاهلة ومجاملتها لا تكون إلا على حساب من أقدار القلة المتعلمة ومواهبها ، وفى هذا تفسير لهجرة العقول التى نراها بالبصر ولا نرى بالبصيرة ما وراءها من أسباب ، ولا ما ينبنى عليها من نتائج :

والأمية هى المسئولة عن شعب لا يفقه ولا يفهم حقوقه السياسية ، فلا عجب إذا لم يشارك حكامه فى تقرير مصيره ؛ ومن باب أولى لا عجب إذا عجز عن أن يحاسب حكامه أو أن يحسن الحكم عليهم .

والأمية هى المسئولة عن أمة تتحول إلى شعب ، وشعب يتحول إلى جماهير ، وجماهير تتحول إلى غوغاء .

إننا نخوض حرباً ضارية ضد عدو شرس عنيد بغيض ، وإن لهذه الحرب علينا أن نقدم لها كل ما فى القلوب من إيمان ، وكل ما فى الصدور من شجاعة ، وكل ما فى اليد من مال ؛ ولكن ذلك كله لا يجوز أن يصرفنا لحظة عن حرب نشنها ضد الجهل والظلام :

سيدى الرئيس ، إخوانى :

يبقى أن أحدثكم عن سلفى ، وأخشى أن أكون قد تحاملت على أوقاتكم ؛ أحدثكم عن سلفى المرحوم الدكتور محمد عوض محمد ، والحق أننى لم أكن قريباً منه حال حياته ، لكننى كنت أسمع عنه وأقرأ له ، وبعد أن استأثرت به رحمة الله ، نظرت فى آثاره ، فإذا أنا أمام سيرة تنبعث منها الأضواء من عدة جهات ، فقد كان ، عليه رحمة الله ، رائدا من رواد المدرسة الوطنية التى سبقت نهضة سعد زغلول ، وكان أسلوب هذه المدرسة فى إيقاظ الوعى الوطنى أن تثير المشاعر ضد الغاصب المحتل ؛ ويبدو أن صاحبنا ، على صغر سنه ، كان نشاطه ملحوظاً فى هذا المضمار ، وبدأ خطر هذا النشاط لسلطة الاحتلال بعد أن اندلعت الحرب العالمية الأولى ، فاعتقلته وقذفت به إلى « مالطة » ، حيث قضى أربعة أعوام ، وكانت « مالطة » حينذاك ، محبس كبار الأحرار .

هذا وجه من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة العطرة لسلفى « عوض » .

الوجه الثانى : هو العلم ، فقد كان جغرافياً نابه الذكر ، حاضراً فى الجغرافيا ، ووضع فيها كتباً قيمة لفظاً ومعنى ، ولم يقع فيما يقع فيه بعض المتخصصين الذين سمحوا لمادة التخصص أن تستأثر بهم وأن تستنفذهم وأن تصرفهم عن غيرها من مواد المعرفة ، فضاقت آفاقهم ، وصغرت أحجامهم ؛ على النقيض من ذلك كان « عوض » صاحب ثقافة عامة ، غنية ، غزيرة ، متنوعة ؛ فهو مثلا يكتب عن الرق ، والمسافة بعيدة جداً بين الجغرافيا والرق ، وهذه الثقافة الغنية المتنوعة هى التى أتاحت له ، عليه رحمة الله ، أن يكون واحداً ممن وضعوا ميثاق الأمم المتحدة ، وأن يكون واحداً ممن صاغوا بعد أن ناقشوا شرعة حقوق الإنسان . هذه الثقافة الغنية الغزيرة هى التى أتاحت «لعوض» فى خطوة أولى أن يكون عضواً فى المجلس التنفيذى لليونسكو ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثانية نائباً لرئيس هذا المجلس ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثالثة رئيساً لهذا المجلس نفسه .

الوجه الثالث من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة ، هو الأدب بنوعيه ، الخاص والعام ، لأنه كان تارة يقدم الفكرة ، تؤيدها العاطفة ، فيكون أدبه عاما كأدب المؤرخ وأدب الناقد ، وكان تارة يقدم العاطفة تؤيدها الفكرة فيكون أدبه خاصا كأدب الشاعر وأدب القصة . وكان إنتاجه من النوع الأول أكثر كثيرا من إنتاجه فى النوع الثانى ، لأنه كان يميل إلى النقد قصد الإصلاح ، وكان نقده فى الغالب يدور فى مدارين : الاجتماع والسياسة ، وكان يحلوله بين الحين والحين أن يسخر ، ولكن سخريته كانت دائماً تتسم بالحياء ، وتتحدث من وراء حجاب وكان لها من الأسطورة والرمز والحوار ، فضلا عن الكناية والاستعارة والمجاز ما أغناها فى هذا الباب .

هذه سيرة عوض كما تمثلتها فى آثاره ، أما سيرته فى المجمع فأنتم أعلم بها منى ، رضى الله عنه وأرضاه :

السيد الرئيس :

كان لك تقديرى وإعجابى قبل أن أراك ، وقد رأيتك فرأيت الحكمة مجتمعة مع القدرة ، والخلق ، وهذه ألوان نادرة قل أن تجتمع فى علم واحد ، وإن الذى بينى وبينك ياسيدى أكثر كثيرا وأعمق جدا من الطربوش ؛ لأن الطربوش رمز فقط ، وهو اليوم يرمز إلى كثير تفهمه أنت وأفهمه أنا ، وأرجو أن يفهمه معنا كثيرون .

أما أنت «ياعبد العزيز» ، ياشيخ القضاة ، فما عهدتك مجاملا قط فى دار القضاء ، ولكنك جاملتنى اليوم من غير شك فى هذه القاعة ، ولا عليك ، فالمجاملة هنا محمولة على معنى الوفاء ، والوفاء وجه من وجوه البر أو وجه من وجوه العدل .

أما أنت « ياثروت » ، فإنى قسيملك فى بلواك ، شريكك فى مصابك ، وإنى أسأل الله أن يهيئ لك ولذويك أسباب العزاء .

وأما أنتم أيها السادة ، فالشكر لكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٠ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره بالجيزة حفل تأبين للمرحوم على الجندى عضو المجمع ، وفيما يلى ما القى فى الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم :

الأستاذ على الجندى

زملائى .

سيداتى وسادتى :

إنه ليعز على المجمع أن يجتمع اليوم لتأبين زميل كريم ، وأستاذ فاضل ، وشاعر لامع هو المغفور له ، على الجندى :

لقد كانت وفاته الفجائية صدمة هزت أعصابنا وتركت فى نفوسنا أشد الحزن وأعمق الأسى : لقد كان الفقيد قبل وفاته بيومين اثنين بيننا سليما موفور الصحة لم يبد عليه أقل أثر للضعف ، بل لقد كان لياة وفاته يتحدث إلى الزميل الأستاذ عباس حسن حديثا فيه دعابة وفيه مرح ، وقد اعتزما أن يلتقيا فى صبيحة تلك الليلة لقضاء بعض الشئون ، ولكن مالبث زميلنا الأستاذ عباس أن روع — كما روعنا — بوفاته فى الصباح الباكر .

ويبدو أننا فى غمرة الحزن والأسى ننسى أنه ليس للموت مواعيد ، وليس للأجل مواقيت ، فكم من رجل يخرج من بيته سليما معافى ثم يدركه الموت فلايعود إلى داره إلا محمولا ، وكم من رجل يمسى وفى صدره آمال كبار ، ثم يصبح فاذا هو خبر من الأخبار . هذه إرادة الله الذى لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه :

ويبدو أن هذه الوفيات الفجائية قد أصبحت من سمات هذا العصر الحضارى الذى نعيش فيه ، فقد اشتد ضغط الحياة ، وتنوعت تكاليفها ، وازدادت سرعتها ، وأصبح الإنسان يطمح إلى تحقيق أهداف بعيدة لاتقوى صحته على احتمالها ، ومن أجل هذا كثرت الذبحات الصدرية ، والنوبات القلبية ،

والانهيارات العصبية ، والضغط العالى والواطى وما إليها من الحالات التى لم يكن لأجدادنا عهد بها .

هذه أيها السادة هى ضريبة الحضارة ، ويجب أن نتقبلها راضين أو كارهين.

ومع هذا فإننا نؤمن إيمانا راسخا عميقا بأن كل حى إلى فناء، وأن كل نفس ذائقة الموت وأن لكل إنسان أجلا محتوما وقدرا مقدورا « فاذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » صدق الله العظيم .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته ، وجزاه عما قدم للأدب واللغة بخير مايجزى به عباده المخلصين العاملين .

●●● كلمة الأستاذ عباس حسن :

بسم الله نبتدئ ، وبحوله نستعين، وبحمده للهج فى السراء والضراء ، وبحكمته البالغة نؤمن فى كل ما تجرى به المقادير ، ولأنبيائه ورسله أكمل الصلاة وأزكى الدعاء وأصدق الإكبار والتقديس ، ولمن اهتدى بهديهم وترسم خطاهم أصدق مراسم الود وأخلد آيات التقدير . ترددها الألسنة فى حياتهم ، وتجددها الذكريات البارة الخالدة بعد مماتهم ويظل تاريخهم منارا يستضىء به السائرون فى ظلمات الحياة، وهدًى يسترشد به الضالون فى متاهاتها . وها نحن أولاء نتلاقى اليوم لنتذاكر ونردد مآثر علم من أعلام الهداية ودعامة من دعائم النفع الأصفى والخير الأعم هو الأستاذ: « على الجندى » أثابه الله على ماقدم ، وأفاض عليه من رحمته ورضوانه ما يفيضه على المصطفين الأخيار من أهل جنته ودار خلوده . فما أجدر فقيدنا أن يكون فى زمرة من أنعم الله عليهم بالرضا وسلكهم فى مسالك الصديقين والشهداء والصالحين .

وما عسى أن أقول فى وصف فقيدنا من صادق القول وخالص الحق بعد أن فقدت الألفاظ فى عصرنا — بل قبل حاضرنا — صحيح الدلالة ، ودقيق المعنى ، وخصيصة التحديد، وانطلقت الألسنة تردد فى الثناء على من يستحق ومن لايستحق عبارات أيسرها : أنه علامة زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، وأنه أشجع الأبطال، وأذكى الرجال وأعلم العلماء وأبرع الكتاب وأشعر الشعراء وماشئت من صيغ التفضيل وأفاعله فى غير حذر ، ولاتحفظ ولاتحرز، حتى أخذ عليهم هذا بعض القدامى فسجل أن المديح المردد قد استفاض حتى انتهى إلى ابتذال اللفظ وموت المعنى ونفور النفس كما سجله شاعرهم الذى يقول :

هل غادر الشعراء من متردم ؟

فما عسى أن أقول اليوم فى موقف التأبين ؟ وما عسى أن أصنع ؟

لامناص من الترديد ، ولى فيه شافع بل دافع ؛ ذلك أنى أعرض مآثر فقيدنا على من يعلم حقيقتها ويقطع بصدق القول فيها لاتشوبها شائبة ادعاء ، ولايدانيها من قرب أو بعد زيف أوتضليل ، فماذا عن فقيدنا الراحل أسبغ الله عليه رحمته ورضاه ؟

لقد زاملته فى عهد الطلب ، وصاحبته بعد التخرج سنوات التدريس فى التعليم ، ثم فى كلية دار العلوم . وتلاقينا بعد ذلك عضوين فى مجمعكم الموقر وقضيت فى هذه الملازمة والمصاحبة نصف قرن أو يزيد . وقل أن تتهيأ هذه المرافقة لكثير من الناس. وأشهد أنى بعد طول المصاحبة فى ميادينها المختلفة ومسالكها أو مزالقها الوعرة الخطيرة لم أر منه إلا مايسر الصديق ، ويرضى الخلق الأسمى ، ويكبت الماجن ، ويحمل الحاقد قهرا على محبته وإكباره . عرفته سمح الطبع مأمون البادرة بل يُظلم أحيانا فيغتفر ، حلو الفكاهة ، حاضر البديهة وقّاد القريحة يزينه فى شبابه شيب جميل على وجه أجمل ، وعقل أكمل : ورأيته فى عهد الطلب مجليا سباقا قلما تخلى عن مكان الصدارة ، يزينه أدب جم ، وحياء محبب ومنافسة فى كرائم الأمور ، وترفع عن صغائرها . يتوج هـــذا كله حرص على الدين ، واستمساك بأحكامه ، وانقياد كامل لكل مايقضى به فى غير تزمت مقيت ولا تحلل بغيض .

وزاملته مدرسا فى معاهد التعليم العام فإذا اسمه يتردد فى مقدمة الأفذاذ مادة وصناعة وتأليفا وأمانة رواية . لم تتخل عنه مزاياه الخلقية ، ولم يتخل عن الحرص عليها ، والاستمساك بها . وهو إلى ذلك كله جم التواضع سمح الطبع لم يتحدث يوما عن نفسه ولم يردد على لسانه لفظة « أنا » ولم يجبه متحدثا بما يسوء ولم يرد عليه بعض ماقال .

وتراه يصغى للحديث بسمعه وبقلبه ، ولعله أدرى به ، ولا تراه إلا باسم الثغر ، متهلل الوجه ، إن فاخرك لم يغضبك ، وإن مازحك لم يجرحك .

وإذا رأيت شقيقه وصديقه
لم تدر أيهما من الأرحام

ينطبق عليه ماقاله بعض السابقين فى صديق له وقد سئل لم تحبه ؟ فقال : إنه الصديق الذى لايضجرك محضره ، ولايسوءك كلامه ولايستخرج ماعندك بالملق والمداهنة ، ولا يدنس لسانه بغيبة ، ولا يمشى بين الأخلاء بالسعاية ولايتوانى فى المجاهرة بالحق ولوصدم به الحبابرة العتاة ، ديدنه : قول القائل :

ولست أبالى حين أقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى

وفى تلك الحقبة التى قضاها فى مدارس التعليم العام أمد المعلمين والمتعلمين بمؤلفات مدرسية متعددة نهضت بالتعليم والدراسة ، وأعانت المعلمين والمتعلمين ورددت ألسنتهم بعظيم مزاياها وجليل آثارها .

حتى إذا انتهى به المطاف إلى كلية دار العلوم ووكل إليه تدريس البلاغة والنصوص تهلل وابتهج ، إذ وجد الميدان الأرحب الذى يناسب مواهبه وذخائره ويتسع لطرائقه وتجاربه فى التدريس وفى التأليف . وفى سنواته القليلة خرج علينا بعدة كتب فى البلاغة كانت طرازا جديدا فى مجالها ، وذخائر نفيسة فى نواح بلاغية وأدبية؛ ذلك أنه اختط فى تأليفها طريقا جديدا ، وأحكم الخطة فيها أيما إحكام ؛فكانت صورا ممتازة من الضوابط البلاغية القاعدية ، تساوقها الأمثلة من الأدب الرفيع ، فقارئها ودارسها ينتهى بها أو تنتهى به إلى تحقيق غرضين جليلين : هما الضوابط القاعدية ، والروائع الأدبية . ولعل الموقف يقتضينى أن أذكر بعض الأمثلة من ذلك الفيض الهتون الذى تموج به كتبه ، ومنها كتاب فى جزأين خصهما بفن الأسجاع وحده ،فمن أمثلة الجناس قول الفرزدق فى زين العابدين :

هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقى النقى الطاهر العلم

ومن أمثلته للجناس المسجوع ،وما أثقل هذا النوع ، قول بعض الوزراء لأحد عماله : كثر شاكوك ، وقل شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت ».وما كتبه آخر : ترفق تُوفق . وما كتبه ثالث : « للمحسن ما يُقنعه وللمسىء من النكال مايقمعه».ومن أمثلته للتشبيه وقد كان من أمثلته فى عصرنا «زيد كالأسد» و « كأنما الوجه قمر » ، فجاء فقيدنا فعرض عشرات جديدة محببة منها فى التشبيه المركب :

يهيجنى الحمام إذا تغنى
كما سجع النوائح بالمراثى

ومن الأمثلة القديمة للكناية فى عهدنا السالف «زيد كثير الرماد ، طويل النجاد» فاستبدل بها عشرات طريفة منها ومن التورية كقوله :

وتنبهت ذات الجناح بسُحرة
بالواديين فنبهت أشواقى
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن
يعقوب والألحان عن إسحاق

وعلى هذا النمط سرى فى اختيار أمثلته المختلفة فى أبوابها المتعددة وقواعدها المتنوعة. وبودى لو يتسع المجال ولكنه وأسفاه لا يتسع هنا لاستعراض كثير من طرائف الأمثلة ونواحى التجديد لنتبين أن كتبه بحق زاد فى القواعد البلاغية فريد، وزاد لغوى ميسر وذخيرة أدبية غالية .

وحسبى أن أكتفى من هذه الكتب البلاغية بذكر ما رأيته منها وهو : (١) البلاغة الغنية (٢) فن الأسجاع فى جزأين (٣) فن التشبيه فى ثلاثة أجزاء (٤) فن الجناس .

تلك كلمة عن فقيدنا العالم ، أما عن فقيدنا الأديب فأوجز ما يقال فيه أنه إحدى الأعاجيب حفظاً واستظهاراً وشاعرية ، فمحفوظه لا يكاد يحد أو يعد إلا بآلاف الأسطر والأبيات، وهل أدل على ذلك من أن تذكر أمامه أمراً فما تكاد تنتهى منه حتى ينقل إلى سمعك ما قاله الأدباء قديمهم وحديثهم

— فيه شعراً أو نثراً ، حتى لتكاد تتوهم أن الذخائر التي يحفظها رهن يمينه ووديعة راحته أو على أطراف أنامله ، يعرضها حين يشاء ويدعوها حين يريد فهى أسرع ما تلبي النداء في غير توان ولا إمهال ، وتلك خصيصة بارزة من خصائصه يعرفها أصحابه ورفاقه :

وأما شعره فسل عنه دواوينه الأربعة بقصائدها التي تفيض بالروائع والبدائع وتضرب في مناحي الحياة المختلفة حضرها وريفها ، مصنوعها ومطبوعها ، وهي في كل ضروبها ضروب من الفن الأمثل والنسق الأعلى ؛ وحسبك من عيون قصائده — وكلها عيون — قصيدته في وصف الإسكندرية وقصيدته في العزة ، وقصيدته في اليتيم ، وكان بودى أن أعرض الساعة لخصائصه الفنية ، وأتناول أدبه بالدرس والنقد والتحليل ، ولكن المجال لا يتسع لهذا هنا ، وأكتفي بعرض نماذج قليلة قد تكون رمزاً لغيرها :

من قصيدة : بين أعمى البصر وأعمى البصيرة * ! !

صدقتَ أنا الأعمى! وإن كان لي نظرٌ ... وليس العمى أن تفقد العين نورها
يكاد يرى المخبوءَ في باطن الحجرْ ... ولكنه نور العقول إذا استتر
وأنت بصير تلحظ الشيء واضحاً ... وكائنْ نرى أعمى من الناس بيننا
بعين قَطامىٍّ وإن خانك البصر ... ومقلتهُ لاتشتكى الطولَ والقِصر

من قصيدة : صورة تذكر بخالقها ! !

(الجمال الصريح ما استنطق الأفواه بالتسبيح)

ليت شعرى ! مارابنى من جمال ... ذكّرينا « ياجُمْـل » بالله ، فالله
هو لله حجّةٌ بيضاءُ ؟ ! ... جمـــالٌ هامــتْ به الأصفياء
رُبَّ حُسنٍ هدى إلى خالق الحسن
حيارىَ لم يهدهم أنبيــاء ... وارجعينا إلى الحيــاة ! فقد مُتْـنـنا
ودعاء باسم الملاحـــة يُزْجِى ... وإن ظُــنَّ أننـــا أحيـــاء
تتــلقّـــاه بالقبـــــول السماء

* * *

(*) كان يسير في النهار المبصر شارد الفكر ، فصدم إنساناً كفيف البصر : فقال له الرجل — وهو يضحك : هل أنت أعمى ؟ !

فأطربته هذه اللفتة ! فأقبل عليه مصافحاً معتذراً ! ورأى زيادة في مجاملته أن يهدى إليه هذه الكلمة .

أى علىّ . . :

عليك تحيـــــــة الرحمن تترى
برحمـــات غواد رائحـــــات

فعزاء للمجمع فى نابغ من أعز رجالاته ، وأظهر أعضائه ، وعزاء للأسرة فى زعيمها الأوفى وكبيرها المرجّى ،وعزاء للغة والأدب والأدباء فى أوضح أعلامها .

أى علىّ . . . سنذكرك ماحيينا :

فقــد ثبتت فى القلـب منك محبة
كما ثبتت فى الراحتين الأصابع

ثم فى جنة الخلد راضيا مرضيا ، وانعم بجزاء ماقدمت يداك ، واسعد بما وعد الله به عباده الصادقين المخلصين ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم :

●●● قصيدة للأستاذ محمد عبد الغنى حسن :

مات الأديب الشاعر الراوية (*)

فى كل عين دمعةٌ جاريه
وكـــل نفس حسرةٌ باقيـــه

حين تنادَى الجمع مابـينهـــم
مات الأديب ، الشاعر ، الراويه

مات ! فيا حزنى على واحد
فقـدْتُ فيـه كـلّ أحبابيّـه

فقــدتُ فيــه ماضيــا مدبرا
« والــدارَ » ، و المجلسَ والعــافيه

فى كل عين نبـــأ مفـــزع
عـــن أنفُس ذاهبـة ماضيــه

نكـــاد لا ننفُض عن راحـــل
غبـارَهُ حـتى نـرى تاليـه

نشيّــعُ المـوتى ، ولا نرعوى
كأننـــا فى سكـــرة لاهيـــه

تدفعُنا الأرحـامُ فى لحظـة
ويحتـوينـا القـبرُ فى ثانيـه

ونحـن مابين بدايـــاتنـــا
ومنتهانـــا صـــورٌ فانيـــــه

* * *

(*) تفضل الأستاذ محمد شوقى أمين بإلقائها فى حفل التأبين الذى أقيم بدار المجمع فى صباح الأربعاء ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٣

مات الذى كانت رواياته
ذات أسانيد لها عاليه

تراه من كثرة محفوظه
يدهش بالحافظة الواعيه

تعيد ماقد قرأت سابقا
لاضحلة الغور ، ولا ناسيه

والنائيات الذكر إن يدعها
تصبح لديه سهلة دانيه

يظل يروى . . . لا الوفاض انتهى
منه . ولاجعبته خاليه

أما الدراسات فكانت له
فيها البحوث الحرة الضافيه

فى « السجع » ، فى « التشبيه » آثاره
ليست على طلابها خافيه

كم وردوا من نبعها صافيا
من البيان العذب أو صافيه

أضفى على المتن بها رقة
وأسبغ الحسن على الحاشيه . .

فلا ترى فيهن من منطق
جاف ، ولا من لفظة جاسيه

حتى « الشذا المؤنس » من ورده
مازال كالنرجس فى الآنيه . . .

فى « المجلس الأعلى » خطانا به
رائحة للشعر ، أو غاديه

وفى لجان الشعر كم جلجلت
منه ومنا ثورة حاميه

يفترق الرأى : : : ولكننا
لم نفترق فى الحب من ناحيه

يهدر باللفظ : : : ولكنه
لم يرم يوماً لفظة نابيه

فى منطق عف وفى غضبة
تعود من لحظتها راضية :::

إذا غضبنا فلأمجادنا
وديننا ، واللغة الراقيه

وفى سبيل الله ثوراتنا
والحضر المحبوب ، والباديه

* * *

و « مهرجان الشعر » كم ذوبت
أنفاسه فيه ، وأنفاسيه !

يبثنى — مستعبرا — ما به
أبثه — مسترحماً — ما بيه

نأسى على الشعر الذى لم يعد
فيه رواء الأعصر الخاليه

فلم يعد كأس ولا شارب
ولم يعد ساق ، ولا ساقيه !

ولم يعد هذا المذاق الذى
يلتذ طعم اللفظة الحاليه

ولم يعد تغرى شفاه به
. ولم تعد أفئدة صاغيه !

ولم تعد حتى الخلال التى
قد سنها الشعر لنا هاديه . .

كنا البقايا فيه من حفنة
لكل أمجاد لنا راعيه

لم نقبل التجديـــد إلا على
آثار أعراقٍ لنا صافيـــه
ولم نـــزل فى ظـــلّ أمجادنا
نعيشُ فى نعمى ، وفى فيـــه !

* * *

يامجمعـــا للخُلْد ! مابالـــه
قـــد دَهمتْه زعزعٌ عاتيـــة ؟
فى كـــلّ يوم علَمٌ ينطـــوى
فى كـــل حـــين قمة هاويـــه
وللـــردى عينٌ . . . ولكنها
على الـــذُرا مفتوحـــة صاحيه
من ذا أعـــدَّ اليوم منْ عقدكم
وكلـــه حبّاتُـــه غاليه ؟
أليمـــة أن الردى غالـــه
وبعـــثرتْه ريحـــه الذاريـــه

إن كان هـــذا الموتُ قد راعكم
بضربـــة من كفـــه راميـــه
ففيكم اليـــومَ عزاءٌ لنـــا
يا حَجَـــرَ الإخلاص فى الزاويه
ويا أعـــزّ الناس فى المنتـــدى
ويا جمالَ الحـــرف فى القافيه !

* * *

يا عَمَـــد الفُصحى وأساسهـــا
ويا ضياءَ الليلـــة الداجيـــه
وياتجـــاريبَ زمانٍ مـــضى !
وياتجـــلِّيَ ســـاعة آتيـــه !
لا خـــير إن فلّ الردى جمعـــكم
وأدركتـــكم سنّةٌ جاريـــه
كفاكمو خُلـــداً هنـــا أنكم
تمضُون . . والفصحى بكم باقية . . .

●●● كلمة الأسرة للأستاذ محمد الفاتح الجندى ((نجل الفقيد))

الأستاذ الجليل رئيس مجمع اللغة العربية بالنيابة
السادة الأجلاء أعضاء المجمع

سيداتى وسادتى :

لقد كان تكريمكم لا تأبينكم اليوم لعميد أسرتنا زميلكم المرحوم الأستاذ على الجندى خير شاهد على جليل وفائكم ، وأقوى دليل على نبيل مشاعركم وفيض أحاسيسكم التى عبر عنها زميلا الفقيد : العالم اللغوى الأستاذ الكبير عباس حسن ، والأستاذ الشاعر المطبوع محمد عبد الغنى حسن ؛ وذلك التكريم العلمى من قادة اللغة وسدنة الفكر فى البلاد العربية هو خير ما يواسى الأسرة ويخفف عنها مصابها الفادح ، وسيظل فقيدنا خالداً بسجاياه وسيرته وبآثاره الأدبية والعلمية التى تحدث عنها الأستاذان الفاضلان .

مامات من حاز الثرى آثاره
واستولت الدنيـــا على آدابـــه

وسيبقى فقيدنا حياً بهذا التكريم من رجال يعرفون الفضل لذويه ، ولا غرو فى ذلك ،

فأنتم صفوة رجال الفكر وقادة الرأى وأساتذة الجيل وحماة تراثنا العربى ، والمدافعون عن حياض اللغة العربية وآدابها وعلومها . . .

واسمحوا لى أيها السادة أن أبيح لنفسى فى هذه المناسبة أن أنقل إليكم أن أعز أمنية للفقيد الراحل وهى أمنية سجلها التلفزيون العربى قبل رحيله بأيام معدودات ، كانت هى الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى بأن يوحد الله سياسة العرب وزعمائهم وأن يكتب النصر الأمة العربية على عدوها الصهيونى الشرس فى معركة الشرف والمصير وأن يمد فى حياته حتى يشهد يوم النصر .

ولعل فى بشائر النصر التى بدت فى العالم العربى فى هذه الأيام ماتقرّ به روحه وتسعد بها فى عالمها العلوى مع الصديقين والشهداء ، وهو ماتنبأ به الفقيد منذ عدة سنوات وعبر عنه فى هذه الأبيات :

أقسمت بالله الذى
فوق البرايا قد قهر
بالشمس بالقمر المنير
وبالصباح إذا سفر
بالذكر بالإنجيل بال
كتب المقدسة الأخر
بالبيت بيت الله حج
له الموحد واعتمر
أنا سنقذف بالهو
د إلى غيابات الحفر
بالجيش كالسيل الدفا
ق وكالخضم إذا اعتكر
ونعود للفردوس يحدونا
ويقدمنا الظفر
ويقال : حزب الله من
حزب الضلالة قد ثأر
ويقال : صهيون تلاشى
وابن ديان اندحر
ويقال : جيش العرب
فى حرب المصير قد انتصر

كما كان والدى ، رحمة الله عليه ، يأمل أن يرى بحوثه وآثاره المخطوطة التى انتهى من إعدادها فى أيامه الأخيرة متداولة بين الناس ، وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويعيننا على نشر تراثه الفكرى وإنتاجه الأدبى حتى ينتفع به الناطقون بالضاد فى العالم العربى والإسلامى .

وبعد :

فإننى باسم جميع أفراد أسرة الفقيد أتقدم إلى السادة الأساتذة ، رئيس المجمع بالنيابة وأعضائه وجميع السادة الحاضرين بأسمى آيات الشكر والتقدير على ما حبوْا به عميد أسرتنا من تكريم — نسأل المولى جلّ شأنه أن يثيبكم عنه وأن يجزيكم بما أنتم أهلٌ له .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الاربعاء ٢٧ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) اقام المجمع فى داره بالجيزة حفل تأبين للمرحوم الأستاذ عزيز اباظة عضو المجمع ، وفيما يلى ما القى فى الحفل :

كلمة الدكتور أحمد الحوفى فى تأبين المرحوم :

الأستاذ عزيز أباظة

سيادة الرئيس ،

سيداتى وسادتى :

عزيز علىّ أن أقف هذا الموقف لأؤبن عضوا بارزا من أعضاء مجمع اللغة العربية شارك جادا مخلصا فى أعمال المجمع أربعة عشر عاما ، كان فيها أثيرا عند زملائه جميعا ، أحبوه لفنه ، وقدروه لعلمه ، وأعزوه لدماثة خلقه .

وعزيز على أن أرثى شاعرا كبيراً من شعراء العروبة أثرى الأدب العربى بشعره وبمسرحياته ، ووقف صبورا جلدا مظفرا فى صد تيار العامية عن الشعر وعن الأدب كله .

لكن الأسى لايرد قضاء ، ولايعيد فقيداً ، فليكن عزيز أباظة حياً بيننا بآثاره ، وإنها لجديرة بأن تحيا وتبقى كما حييت وبقيت آثار البلغاء منذ العصر الجاهلى إلى اليوم .

وبحسبى فى هذا المقام أن أعرّف به وبشعره فى غير تفصيل وفى غير إجمال :

١ — حياته

ولد الفقيد فى ١٣ من أغسطس سنة ١٨٩٨ بقرية (الربعماية) مركز (منيا القمح) بمحافظة الشرقية ، وتعلم بالمدرسة الناصرية الابتدائية بالقاهرة ، ثم بالمدرسة التوفيقية والسعيدية الثانويتين بالقاهرة ، ونال شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩١٨ ، فالتحق بمدرسة الحقوق ، وتخرج فيها سنة ١٩٢٣ واحترف بالمحاماة ، ثم عين عضوا بالنيابة ، ثم عضوا فى مجلس النواب .

وفى سنة ١٩٣٣ عين مديرا لتحقيق الشخصية بوزارة الداخلية ، ثم وكيلا لمديرية البحيرة سنة ١٩٣٥ فوكيلا لمديرية الجيزة .

وفى سنة ١٩٣٩ عين مديرا للقليوبية فالفيوم فالمنيا ، ثم محافظاً وحاكما عسكريا لمنطقة القناة سنة ١٩٤١ ، ثم مديرا للبحيرة ثم أسيوط .

وفى سنة ١٩٤٧ اختير عضواً بمجلس الشيوخ، وعمل بعد ذلك فى الميدان الاقتصادى .

وفى سنة ١٩٥٩ اختير عضواً بمجمع اللغة العربية ، وكان فى الوقت نفسه عضواً بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وعضواً مراسلا بالمجمع العلمى العراقى .

وقد شارك فى ثلاث لجان بالمجمع اللغوى هى لجنة القانون والاقتصاد ، ولجنة ألفاظ الحضارة ولجنة الأدب .

وقد منحته الدولة الجائزة التقديرية سنة ١٩٦٥، وجاء فى تقرير لجنة الجائزة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية :

أن الأستاذ عزيز أباظة يمتاز فى إنتاجه الأدبى بما وفق إليه من الإبداع الفنى فى شعره الغنائى والمسرحى .

وكانت وفاته فى العاشر من يوليو سنة ١٩٧٣ م .

٢ — مؤلفاته

(أولا) فى مجال الشعر :

١ — أنات حائرة ، ديوان كله فى رثاء زوجته .

٢ — قيس ولبنى

٣ — العباسة

٤ — الناصر

٥ — شجرة الدر

٦ — غروب الأندلس

٧ — شهريار

٨ — أوراق الخريف

٩ — قافلة النور

١٠ — قيصر

وهذه كلها مسرحيات شعرية

(ثانيا) البحوث والكلمات والقصائد المتصلة بالمجمع اللغوى :

١ — كلمة عن سلفه أنوليتمان ألقاها فى احفل ستقباله بالمجمع. (دورة ٢٦ جزء ١١ للمجلس، المجلة العدد ١٤) .

٢ — المسرح الشعرى ، بحث ألقاه بالمجمع . (د ٢٧ ج ٧ للمؤتمر — البحوث والمحاضرات) .

٣ — كلمة فى استقبال الدكتور محمود توفيق حفناوى (د ٢٩ ج ١٦ للمجلس — المجلة العدد ١٧) .

٤ — لغة الشعر — كلمة ألقاها فى مؤتمر المجمع ببغداد . (د ٣٢ ج ٦ لمؤتمر بغداد) .

٥ — الفصحى والعامية من زاوية جديدة . (د ٣٢ ج ٩ المؤتمر الثالث) .

٦ ــ قصيدة فى تأبين رئيس المجمع الأستاذ أحمد لطفى السيد : (د ٢٩ ج ٢٧ للمجلس ــ المجلة العدد ١٨) :

٧ ــ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الأستاذ عباس محمود العقاد . (د ٣٠ ج ٢٧ للمجلس ــ المجلة العدد ١٩) :

٨ ــ تحية بغداد ــ قصيدة ألقاها فى الجلسة الافتتاحية لمؤتمر بغداد . (د ٣٢) .

٩ ــ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الأستاذ محمد رضا الشبيبى . (د ٣٢ ج ٨ لمؤتمر القاهرة) .

١٠ ــ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الشيخ محمد على النجار . (د٣٢ ج ٢٣ للمجلس) .

١١ ــ قصيدة فى تأبين الأستاذ مصطفى نظيف عضو المجمع . (نشرت بمجلة المجمع العدد ٢٨ فى نوفمبر سنة ١٩٧١) .

١٢ ــ قصيدة تحية لرسالة العلم (المجلة التى تصدرها جمعية خريجى كليات العلوم برياسة الدكتور عبد الحليم منتصر ــ مارس ١٩٧٣) .

١٣ ــ كلمة أعدها لاستقبال الأستاذ مصطفى مرعى بالمجمع اللغوى ، وألقاها بعد وفاته نيابة عنه الأستاذ ثروت أباظة فى يوم الأربعاء ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م .

٣ ــ شعره المسرحى

١ ــ المسرحية الشعرية إنتاج زاخر أو بستان ناضر يضم عشرات الألوان ، ففيها عشرات القصائد والمقطعات ، وفيها ألوان شتى من الموضوعات ؛ كالوصف والحرب والحماسة والحكمة والغزل ، وفيها ضروب من التكلم والخطاب والحوار والجدل ، وبها شعر ينطق به واحد ، وشعر تنطق به جماعة ، وشعر يعبر عن فرد ، وشعر يعبر عن أفراد أو عن أمة ، وهى من أوزان شتى وقوافٍ عدة :

ومن هنا تجىء صعوبتها على الشاعر ، وتجىء دلالتها على مقدرة الشاعر .

٢ ــ ولقد أثبت عزيز أباظة بمسرحياته التسع ماأثبته شوقى من قبل بمسرحياته أن الشعر العربى قدير على الوفاء بما تقتضيه المسرحية من عرض للأحداث ، وتصوير للنفسيات ، وحوار على ألسنة الذكور والإناث والكبار والصغار ، وتعبير عن أخلاق الأخيار والأشرار والأقوياء والضعفاء والفرحى والحزناء والسعداء والأشقياء .

وبهذا بطل مالاكته ألسنة وسطرته أقلام أن الشعر العربى كز عسر لايطاوع الشاعر المسرحى ، وأن الخيال العربى ضحل لايستطيع أن يخلق ولا أن يحلل ويركب ويبتدع الأحداث والأشخاص ، وأن البلاغة العربية ضيقة تعتمد على الإيجاز ولاتعرف التفصيل والتوضيح والإطناب .

٣ ــ وإذا كان الشعر العالمى قد أتى عليه دهر طويل وهو يصطنع الشعر وحدد لغة للمسرحية فإن الرومانتيكية حاولت أن تنزل

الشعر من عليائه لتحل النثر محله ، وناصرها فى اتجاهها المذهب الواقعى والمذهب الطبيعى ، ولكن الشعر لم يستسلم لهذه المنافسة ، وآزره فى ثباته الذين نهضوا لمقاومة الواقعية والطبيعية .

وكان من الحاملين على الشعر المسرحى نقاد دعوا إلى إيثار النثر بدعوى التزام الواقع ، وبدا فى بعض الأحيان أن الغلبة لدعاة النثر وأنصار الواقع وبخاصـــة بعد أن راجت قصص تشيكوف وإبسن وأضرابهما ، حتى إن الشاعر الكبير إليوت — وهو من أنصار الشعر المسرحى — كاد يداخله اليأس من أن يسترد الشعر مجده المسرحى فقال :

« يظهر أن عالمنا المعاصر حافل بالفوضى ، وأن المجتمع الذى نعيش فيه تعوزه المقاييس الدقيقة ، فصارت وظيفة الشاعر المسرحى شاقة جدا أو مستحيلة » .

وكان لهذه الدعوة أو لهذا اليأس صدى فى مصر والعالم العربى ، فقال الدكتور طه حسين « إن الشعر لم يعد صالحا للمسرح » .

وسرعان مانتأت إلى جانب تلك الدعوة دعوة أخرى أشد خطرا ، وهى الدعوة إلى اتخاذ اللغة العامية لغة للمسرح ، بدعوى الحرص على محاكاة الطبيعة ومجاراة الواقع .

٤ — وما أيسر الرد على الدعويين : دعوى تنحية الشعر عن لغة المسرح ، ودعوى إيثار العامية على الفصحى :

ومن الوفاء لذكرى شاعرنا عزيز أباظة أن أنقل هنا بعض مارد به :

قال فى مقدمة مسرحيته شهريار : « إن الشعر يحفظ الاتزان بين الواقعية والشكل الخالص وبين العرض الحرفى والتجريد ، إنه يحقق الهدف الفنى الرائع ، فرسالته فى كريم أعراقها توطئ لنا سبيل فهم هذه الحياة وإدراك قيمها وجمالها .

ويبدو لى أن وراء الانفعالات المعروفة والدوافع الشعورية — تلك التى تقتصر المسرحية النثرية على عرضها — يبدو لى أن وراء ذلك تنبسط آفاق لاشعورية ليست بذات حدود ، إنها الانفعالات التى لانستطيع أن نجلو عواملها إلا إذا تجردنا من أنفسنا ، وسمونا فوق أفعالنا وتجاربنا ، إنها الحقائق الخالدة التى لايسجلها إلا الشعر بإيقاعه .

وقال أيضا : « قال أنصار الواقعية فيما قالوا : وما التراكيب الفصيحة ؟ وما الأسلوب الشريف ؟ الكلام بغيرهما أبين ، والفهم أدنى وأيسر .

ثم برزوا مسفرين مصرين مجاهرين ، فدعا فريق منهم إلى أخلاط من التعابير المتهافتة الغثة من الشعر المنثور والنثر المشعور يقيمونه باسم الحقد والعجز على أنقاض الشعر الأصيل .

ودعا فريق آخر إلى العامية يكتب بها الناس قصصهم ومسرحياتهم لتقوم باسم التقدمية أو الشعوبية على أنقاض تلك الذخيرة الربانية من النثر العربى المحكم ، وساقوها دعوة أدبية فنية ، وهى دعوة

أثيمة خبيثة تكمن وراءها مساندات مظاهرات نفوس سقيمة عطاش لهدم كل ماهو مأثور من ترات العصور ، وكل قيم من ذخائر الحضارات التى هذبها الزمن وأغلاها العتق :

من الحق لكم ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تجهروا بأصواتكم — وهى فى هذا المقام من أصوات النبوة — مطالبين كل دولة عربية أن تطهر صحفها وإذاعتها ومسارحها الجادة من خبثين قاتلين : خبث مساندة العامية وإشاعتها باسم التخفيف والتيسير ، وخبث مجاهرة الأدب بعدوان سافر يهون من أقداس شعره ونثره باسم التجديد والتطور ، فإن فعلتم — وإنكم لفاعلون — فنحن الأعلون ، والله معنا »[1] .

أرأيتم إلى اعتزازه بالعربية الفصحى لغة للأدب ؟

ثم أرأيتم إلى حملته على العامية وأنصار العامية ؟

وإلى دفاعه عن الشعر لغة للمسرحيات الجادة ؟

وما من شك فى أنه محق فيما قال ، لأن الذين دعوا إلى العامية لغة للمسرح بدعوى مجاراة الطبيعة والواقع واهمون ، فإن الواقع الذى ينبغى أن يتوخاه مؤلفو المسرحيات ليس هو واقع اللغة التى يتفاهم بها الناس فى حياتهم اليومية وشئونهم المعتادة ، بل هو الواقع الفكرى والعاطفى والنفسى للشخصيات ، بحيث لا تصدر الحكمة عن أحمق ، ولا تنطلق الفلسفة من جاهل ، ولا يجئ الهدى على لسان ضال ، ولا يبدو جبن من بطل . . . الخ .

وعلى الذين يتحمسون للواقع أن يسألوا أنفسهم أسئلة شتى ، منها :

هل يتناسب الواقع ورقعة المسرح الصغيرة التى لا تمثل شيئاً من ميادين الحياة الفسيحة الرحبة ؟

وهل يتفق الواقع وتلك الأزياء والمناظر التى يشهدها النظارة على خشبة المسرح ؟

وهل يتشابه الواقع وهذه المشكلات والعقد والحلول التى تعرض فى ساعتين أو ثلاث وقد حدثت فى شهور أو أعوام ؟

على أن التزام الفصحى يتيح لأبناء الأمة العربية جميعاً أن يفهموا ويتذوقوا ما قرضه شاعر المسرحية ، لأن الفصحى لغتهم الأم التى يتوافون عليها ويتفاهمون بها ويتواصلون بأسبابها ، أما العامية فهى أشتات وأصناف تختلف باختلاف الأقاليم ، بل تختلف فى الإقليم الواحد .

فلا عجب أن اتسمت مسرحيات عزيز أباظة بالبيان المتخير الأخاذ ، وبإجراء الحديث الواحد على وزن واحد ، وبالحرص على سلامة التعبير من اللحن أو الركاكة ، حتى إنه قلما قصر ممدودا أو مد مقصورا مع علمه أن هذا فى الشعر رخصة .

---

(١) البحوث والمحاضرات ١٥٦ ، سنة ١٩٦٠ — ١٩٦١

وإذا كان فى مسرحية (أوراق الخريف) قد استخدم كلمات مما يدور على ألسنة العامة ، فإنه قد قصد إلى تسهيل الفصحى من ناحية ، وإلى الدلالة على صحة هذه الكلمات من ناحية ، مثل :

حسادة ، زوق ، عجايب ، البخت ، مهسوس الذرة ، تعكير المزاج ، من غير كلام .

٤ — العروبة فى شعره

كان عزيز أباظة شاعرا معتزاً بعروبته لغة ودماً ووطناً ووجداناً وحضارة وآلاما وآمالا وثقافة .

وللعروبة فى شعره مظاهر جهر بها مرات على لسانه ، أو أدارها على ألسنة الشخصيات فى المسرحيات .

١ — فقد زار قرطبة ، وطوف بأرجائها ، وتلبث عند معالمها العربية ، وأطال الوقوف فى مسجدها وقبالة مئذنته ، فخيل إليه أن قلبها ما يزال يعتصره الألم ، وأن حسراتها على عصرها العربى الذهبى ثائرة لم تخمد ، وتذكر قصر الزهراء الذى كان قطب السياسة العالمية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وتخيل عظمة قرطبة وآدابها وعلومها وحضارتها والوفود التى كانت تهرع إليها ، لترتوى من مناهلها ، فقال فى قصيدته (وقفة على قرطبة) :

يا جارة المسجد البالى ومئذنـــــة
الله كان يناجَى من مشارفهـــــا
ماذا دهاها فأمست وهى ناهـــدة
فى غير ما ألفتـــه من معاطفها ؟
وقفت فى طلل الزهـــراء مختشعاً
والنفس تهب لعاتٍ من عواصفها
أرنو فيرتد طرفى راعشاً وجـــلا
كهائب اللجـــة الكبرى وخائفها
طوّفت بالطلل الأســوان أسائله
أين الخلافـــة فى حِضنَىْ خلائفها ؟
أين ابن بجدتها شعَّت حضارتـــه
سناً على سالف الدنيـــا وآنفها ؟
الناصر الظافر المخشى جانبـــــه
فى حيثما دب ساع فى تنائفهـــا
الباذل العلم عن أعلام جامعـــــة
تدنى الثمار مزكَّاة لقاطفهــــــا
لا ظل روما ولا أفياء قدوتها
بمجزئ العقـــل عن ملتف وارفها
ذكرت يوم الوفـود الضخم ساعية
للقصر ترفل فى ضاحى ملاحفها
فزف كل كبير من عواهلهــــا
وخفَّ كل وقور من أساقفهـــــا
ساقوا الهـدايا وساقوا بينها خطباً
أنساهم الروع طـرفاً من طرائفها

ثم تبدو الحسرة فى قوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس
إلا شُفَـافـــة راحٍ من عوارفهـــا
لهفى على حسنها الذاوى وزهرتهـا
وحاليات الحواشى من رفارفهـــا

وقلت : أين حضارات ومعرفــة

أظل هذا الورى مَوْشِيُّ وارفها ؟

وأين هَدى تهدّى من صحائفها

وأين نور تجلى من مصاحفها ؟

يا ويحها ذكريات هيجْن بى حرقاً

تنساب فى راسب الذكرى وطائفها

٢ – ودعا إلى وحدة العرب ، وحرص عليها ، ونفرهم من الفرقة والانقسام والتخاذل ، ففى مسرحية (غروب الأندلس) أدار حوارا بين محمد بن سعد الزغل شقيق السلطان أبى الحسن وولى عهده وبين ابن سراج وعائشة وموسى بن أبى الغسان ، فصور أسى الزغل من الفتن المشتعلة بين العرب ، وبغضته لتأريثها ، واستنكاره الجنوح إلى مثيريه على الولايات العربية المجاورة ، فى الوقت الذى يجب فيه على العرب أن يتآزروا كالبنيان المرصوص ليردوا هجمات الفرنجة ، فيصونوا حصن العروبة ، ويفتدوا عزة الإسلام : :

عرضتم لضخم الأمر لم تتذاكروا

عواقب قد تبدو لكم وتغيب

أتأريث أضغان وإيقاظ فتنــة

تدك قوانــا والعدو رقوب ؟

إذا لم نقف صفاً هلكنا وأطبقتْ

قواطـــع تفرى ملكنا ونيوب

فلا تطمسوا الإسلام إن شروقـه

سيغشاه ممـــا تزعمون غروب

وصور فى مسرحية (العباسة) سخط زبيدة على تفرق العرب بالشام ، وكيد بعضهم لبعض وعجبها من العصبية الحمقاء بين اليمانية والنزارية وهم جميعا أبناء عمومة يستظلون براية الإسلام :

وهل كان بالشام غــير الشّقا

ق كلُّ شقاق لــه مقْطع

يمــــانية أو نــــزاريــة

وبينهما رحــــم تجمــــع

ولو أنهم تُرِكوا راجعوا الـ

أناة وعن جهلهم أقلعـــوا

٣ – وأشاد بوحدة الدم ووحدة الدين والوجدان المشترك فى وثيق العلائق بين العرب وإن تعددت أقاليمهم وتناءت ديارهم ، فصور هذا فى مسرحية (غروب الأندلس) على لسان الأميرة عائشة زوجة السلطان أبى الحسن فى حديث بينهما وبين السلطان الغورى حينما جاءت من الأندلس إلى مصر لتستنجد به على الفرنجة :

حيِّيت ياملك الملوك ولم تـزل

أعلامهم وأعزهم سلـــطانـــا

وبقيت للأمم الشقيقة موئـــلا

فى إدِّها ومناصراً معوانـــا

قد آن أن أمضى إلى وطنى وإن

كانت دياركم لنـا أوطانـــا

الدين قربى والعروبـــة لحمة

ولعـــل أقوى الآصرات أسانـا

تلك الوشائج وحدت ما بيننا

وأن اختلفنا رابة ومكانـــــا

فرد عليها الغورى مستجيباً ملبياً نداء العروبة ، معتزماً على نجدة عرب الأندلس بجيش عربي لجب مظفر يدحر أعداء العروبة والإسلام :

سنشهرها حربا ضروساً مهيدة
ونبعثه جيشاً كثيفاً عرمرمـــا
يرد عن الإسلام كيد عـــــدوه
ويحمى حمى دولاته أن تهدمـــا

٤ — وإن الاعتزاز بالعروبة وإعزازها والحرص على حمايتها التتجلى فى كثير من مشاهد مسرحية (العباسة) كقوله على لسان الرشيد للشاعر منصور النمرى :

بل قل فما فضل أمـــــــة
إذا لم يؤرخ مجدها شعراؤهـــا
إذا العرب استعلت بفن شأت به
سواها فهذا شعرهـــا وغناؤهـــا

وفى المسرحية تصوير لزبيدة وهى تحض هرثمة على التنكيل بالبرامكة ، خشية على الملك العربى أن يقوضوه وعلى الإسلام أن يرنقوه ، بعد ماتبين لها وللعرب أن البرامكة أبطرهم الجاه والسلطان والثراء ، فجعلوا يكيدون للعرب ، ويتطلعون إلى بعث ملك كسرى :

لاتناموا عن جعفـــر فله كالذ
ئب عين يقظى ونـــوم مُطار
لست أطـــوى له سخيمة صـــدر
لا ولا بينـــــه وبينى ثار
غير أنى أخشى على الملك منــه
وعلى عترة النبى أغـــــار

وفيها تصوير للقائد العربى الفضل بن الربيع ناقما من البرامكة ماتنقمه زبيدة فى قوله للأمير جعفر بن الهادى :

فقل لأهل الزيغ مـــن فارس
من كل زنديق الهوى مشرك
لن تبلغوا فى العرب أوطاركم
سيمحق الله بنى برمـــــك

وفى المسرحية صور من شكاوى الشعب إلى الرشيد مما يقترفه البرامكة وعمالهم من قسوة وظلم ومحاباة ، مثل قول أبى الجهم :

أمين الله أدركنـــــــــا
فإنـــا مسنا الضـــــرُّ
نعيشُ العيشة الدنيـــــا
ويهنـــا الأجنبُ الغمْـــرُ

وقول مخلد :

أترضى أن يجيعونـــــــا
وأنت الوَفْـــرُ واليــــسرُ ؟
وأن نمسى بـــــلاريٍّ
وأنت البحْرُ والقطْــــــرُ

وقول أبى الجهم مرة ثانية فى تفصيل مثير :

وذنبـــــانـــا هما الهــــون
لـــــدى الظـــالم والفقر
فلسنا مــــن بنى برمـــــ
ـــك لا يعصى لهـــم أمـــرُ
نماهم للعلا كســـــــرى
ومانى ومنو جهـــــــرُ

ولكنــا مــن العرب
وحظ العرب منزورٌ
قريشٌ هــل لهــا وزنٌ
لــدى الأعلاج أو قــدرُ ؟

ومثل إثارة أبى الجهم لنخوة الرشيد فى قوله :

ولكن ميــزوا جنســا
من الناس عــلى جنس
وفى الحــق فأيــن العُــرْ
ب مــن مشيخة الفــرس ؟

ثم تعقب عجوز على هذا بقولها للرشيد :

أجِرْنا بتَّ مـــأجورا
مــن الله ومشــكورا

فيلتهب الرشيد حنقا على البرامكة ، ويبدو حنقه وعزمه على التنكيل بهم فى قوله لجعفر البرمكى :

وسلبتمُ جــاه الخليفــة جهرة
وتركتموه دميــة فى هيكــل
أترفتم مثل الملوك وأمتى
جَوْعَى تدافع فى الحضيض الأسفل

٥ ـ كانت عروبة عزيز أباظة عقيدة تجلت فيما أسلفت من مظاهر ، وتجلت فى معرض آخر هو المقابلة بين الشعر العربى والشعر الغربى ، فقد كان له بحث منذ ثلاثة عشر عاما وازن فيه موازنة سريعة بين الأدب العربى والأدب الغربى ، ثم أعد موجز هذا البحث للنشر فى آخر أيام حياته وإن لم يظهر إلا بعد وفاته (١) :

قال إن الشاعر العربى يؤثر الإيجاز الجامع لأطراف الفكر أو الشعور ، وضرب أمثلة لهذا منها أن شكسبير أطال فى تصوير جنون الغيرة فى مسرحية (عطيل) حتى انتهت غيرة الزوج بقتل زوجته البريئة ، ثم بندمه ، ولكن الشاعر العربى ديك الجن ألم بهذا فى إيجاز فى قوله :

رويتُ من دمها الثرى ولطالما
روىَّ الهوى شفتىَّ من شفتيها
حكَّمت سيفى فى مجال خناقها
ومــدامعى تجرى على خديها

وراسين جمع فى (أتالى) أطراف الحقد الأسود ، وعرض للانتقام والمقت على الرغم من الود والرياء والصفاء المستحدث ، على حين أن الشاعر العربى وجد مقنعا فى قوله المركز :

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى
وتبقى حزازت النفوس كما هيــا

وموليير تحدث فى سخرية عن البخل والتقتير ، واستقصى ظواهر تلك النفس المريضة وبواطنها ، ولكن ابن الرومى أرسل فى بيت واحد صورة ناطقة حية للبخيل

(١) مجلة قافلة الزيت ـ جمادى الثانية ١٣٩٣ (يوليه ١٩٧٣ م) .

لايغض من كمالها أنها موجزة لامشاهد فيها ولا فصول :

ولو يستطيع لتقتيره
تنفس من منخر واحد

ثم قال إن الأدب العربي سبق إلى الإشادة بالحرية والديمقراطية والاشتراكية والتعاون والسلام وضرب أمثلة لهذا ، منها قول أبي العلاء :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقول الشاعر :

الحسالطين غنيهم بفقيرهم
حتى يصير فقيرهم كالكافي

وقول معن بن أوس :

دعاني يشب الحرب بيني وبينه
فقلت له : لابل هلم إلى السلم

٥ — الإسلام في شعره

أما مظاهر الإسلام في شعره فهي كثيرة تبدو في ضروب شتى من حالات اليسر والعسر والفرج والضيق والقوة والضعف .

١ — فالجهاد للذود عن الإسلام وحماية المسلمين فريضة يتسابق إلى النهوض بها المسلمون ، ويتنافسون عليها ، معتقدين أن الله ينصر من ينصر دينه ، وأن قواه الخفية الغلابة تمدهم بجنود لايرونها .

يتجلى هذا في حوار بين القاضي سنجر والملك وابن مطروح من مسرحية (شجرة الدر) :

ابن مطروح للملك :

حييتك مصر فقد حميت ذمارها
والخطب فوار المراجل حامي
ودفعت عنها المعتدين وسمتهم
عنتاً فصنت كنانة الإسلام

الملك يرد على مدح ابن مطروح :

لم أرم — شاعر مصر — حين رميتهم
بل كان ربك ذو الجلال الرامي

والمجاهدون الذين افتدوا الإسلام بدمائهم وأرواحهم ، وانتصروا على أعدائهم ، لاينسون وهم يباهون بانتصارهم أنهم نصروا دينهم إذ وقوا من الغزو بلادهم ، وكفلوا لوطنهم الحرية والقوة والعلاء ، يقول أقطاي لقلاوون في مسرحيته (شجرة الدر) :

قل لي : أما نحن الذين تحررت
مصر بحر سيوفهم ودماهم ؟
ذاق الصليبيون غضبتنا فما
صبروا على الموت الذي غشاهم

ويقول قلاوون لبيبرس وأقطاي :

أقطاي نحن ثلاثة لم نختلف
فيما مضى فلنبق متفقينا
أسيافنا لم تجل عن أغمادها
إلا وقت عرضا لمصر ودينا

٢ — ولما ضل بعض الحكام المسلمين سواء السبيل فحالفوا الصليبيين على مصر ، واستعانوا بهم ، حزت الآلام في نفس شجرة الدر وودت لو أنهم استعانوا بالخليفة وحده :

لو أنهم قصدوا الخليفة وحده
قانا — وإن لم ينصفوا — لم يسرفوا

لكنهم ركنوا إلى أعـــــداثنا
مستنصرين بهم ولم يتعففـــــوا

وعدوا الفرنجة بعض مصر فقل لهم
الله مانع مصر مهما تُرْجِفـــــوا

وإن شجرة الدر لتعجب من عدائهم لها وتغاضيهم عن تطبيقها للشورى التي أمر الله بها ، وتعاميهم عن دحرها للصليبيين وحمايتها للإسلام :

أفنـــــاقمون على أنى قبلت
الشـــورى وأحكام الكتاب أمامى ؟

أم غاضبون لأنى أوقعت بــــال
إفـــــرنج فاعتصمت عرى الإسلام

٣ ــ وهو يصور مكانة العلماء علية لايصح أن يمسها أحد ، ويحقر من يتخذ الدين منهم أحبولة للكسب أو الجاه أو الثراء ، فإنه لما حاول المفتى أن يخدع شهريار فخابت مشورته ، قال له :

انصـــرف ياحقـــر العـلم شر الـ
ـــعلم ماكـــان نهزة للشــــراء

إن للمسلمين دينـــا جليــــا
صافى النبـــع من رحيق الســماء

قـــد لصقتم (١) به اللصائق حتى
تبرفوا فى جهـــالة الجهـــلاء

٤ ــ وهو يردد فى مسرحياته إيمانه العميق بأركان الإسلام وتعاليمه وآدابه . من ذلك أن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب ، ومدبر الكون ، ومانح القوى والقُدر ، علمه سابق ، وقضاؤه واقع .

نجد هذا فى قول سنجر للأمير فى مسرحية (شجرة الدر) :

مولاى لايزعجــك ما بُلّغــت من
نبـــأ فإن الغيـــب سر مضمـــر

قـــل للمقدر للعبـــاد حظوظهم
الله فوقـــك قادر ومقـــــدر

ونجد إيمانه بالبعث فى قوله بمسرحية (أوراق الخريف) :

قولى لهـا سأظـل حافظ عهدها
حـتى تجمعنـا الحياة الثانيــــة

وكذلك إيمانه بالقضاء والقدر فى قوله بمسرحية (أوراق الخريف) :

مهيب : أتؤمن بالمقادر ؟
قاسم : (فى دهشة) غير شك :
مهيب : وتؤمن من أنها فرضت كتابا .
قاسم : أجل :
مهيب : وتحس أن هناك حدا لحول المرء من عاناه خابا ؟

ويؤمن بأن الله تعالى هو الهادى اللطيف العليم الخبير الذى يستجيب دعاء عباده ، قال على لسان العباسة :

يارب أدركنى بلطفك واهـدنى
سنن السداد فقد سألـت كريما

(١) الصواب ألصقتم .

وهو تعالى العادل المجير الناصر ، قالت علية لعتبة فى مسرحية (العباسة) :

حسبك الله لقـــــــد زد
تِ لظى القلب استعارا
إن لله لعــــــــدلا
إن طغى الـــدهر وجـارا

وكثيرا ما نجد القسم بالله أو ببيته العتيق فى مواضع شتى ، حيث يقسم الشخص صادقا فيما يقول غير متخذ من قسمه وسيلة للتضليل والخداع وستر الافتراء . فالعباسة تعاتب الرشيد ، وترد على ، زبيدة إذ اتهمتها بكراهيتها فتقول :

حلفتُ بالبيت العتيق والحق يحلف
ماشفنى من فعلها حقد ولكن أسف

وجعفر يؤكد حبه للعباسة ، فيقسم بالكعبة مثابة المسلمين ومحجهم :

أقسمت بالبيت تخـــدى
عيس لــه وتخـــب
أعناقها مهطعــــات
لقـــدسه تشرئـــب
والمحرمـــون عليهــــا
ساقوا وألقوا ولبـــوا (1)
لأنتِ حلمى المرجَّـــى
فى خاطر الــدهر يخْبــو

٥ — ويقتبس من القرآن الكريم ، كقوله فى مسرحية (العباسة) على لسان العباسة لأختها :

« ورضا الرحمن يؤتيه من الناس السعيدا»

وقوله فى (قافلة النور) على لسان جابر لمنذر :

وقــد أقمنـا صلاتنـا وقضينا
ذمــة الله فاقض ماأنت قاض

وقوله على لسان سلفراس :

لكم هديـكم فاتبعوا هديـه
ولى دين آبائى الكابرينـــا

وقوله على لسان شهريار مناجيا ربه :

يارب رُب مســــئٌ
بغى فتــــاب وكـــبر
ماكنتَ موبـــق عبــــد
وإن طغـــى وتجــــبر

وقوله على لسان شهريار فى نقمته من شهرزاد :

اغريت بى الحــــير
ة كالليل إذا يســــرى

٦ — وكثيرا ماحلق فى جو عال من الروحانية ، إذ صور مواقف الخشية من الله ، والاستغفار من الذنب ، أو صور الحنين إلى بيت الله وإلى مثوى الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(1) ساقوا الهدى وألقوا الجمار ، والصواب لبوا بفتح الباء لا بضمها .

قال على لسان (وداد) فى مسرحية (أوراق الخريف) :

يـــارب هـــل أنت راض
أو غاضب ، مـــن مجيبى ؟
يـــارب إنـــك عـــدل
ورحمـــة مـــن قريـــب
فهـــل ضللـــتُ سبيلـــى
وهـــل غـــوى أسلوبـــى
لا : لست أخشاك مهمـــا
أضعف فـــأنت حبيـــبى
مـــا كنت رب مـــراء
بـــل أنـــت رب قلـــوب

وقال على لسان حادى القافلة المتجهة من الحيرة إلى الحجاز فى مسرحية (قافلة النور):

يانفـــس إن أفضيت للمنـــوره
وراوحتـــك الروضة المنضره
حـــو ت سنا الله وضمت منبره
وبضعة من ذاته المطهـــــره
ألقيت يانفس غبار الأثـــره
وانجلت كالطيف عنـــك القتره
وطفت مـــن مأثرة لمأثـــره
وذقـــت مـــن مغفرة فمغفـــره
مـــن قبـــل أن تقدمى بمعـــذره

ولم تكد حسن شاه حاضنة بنت سلفراس والى الحيرة تسمع هذا الحداء — وكانت أسلمت — حتى أجابت على الحنين إلى مدينة الرسول بحنين مثله فقالت :

يا حـــادى العيس حملـــن البرره
إلى عوالى يثرب المـــزدهره
سر راوحـــتك الديم المستغزرة
وخلنى لأدمعـــى المنفجـــره
يثرب فى أخيلتى المصـــوره
إن لم تـــكن لؤلؤة فجوهره
الـــكون داجـــى الليل وهى المقمره
ألمحها فى النسمة المعطـــــره
وفى الوجوه الطلقة المستبشـــره
وفى هوى عـــف ونفس خيرة
وفى حياء الغادة المخـــــدره
وفى بريق النظرة المبشـــــره
هذى المنى ، لو أنها ميســـره

٦ — أسلوبه

كانت موهبته الفطرية ، ودرايته بمتن اللغة ، وذوقه المرهف ، وغيرته على الفصحى ، وحفاوته بها ، وحبه لها ، هى الدعائم الوطيدة التى قامت عليها خصائص أسلوبه :

١ — فهو حريص على التأنق فى اختيار الكلمة ، مشغوف بالرصانة فى نظم العبارة ، نفور من العامية ، ومن الركاكة ومن الإسفاف ، حتى إنه ليتجافى عن الكلمة إذا ما أحس أنها فقدت رونقها لكثرة ما لاكتها الألسنة أو تداولتها الأقلام. لهذا كان يكثر من ترديد النظرات الفاحصة فى كتب الأدب والمعاجم ليقتنص كلمات من الفرائد الحسان يرددها فى شعره ليكشف عنها أستار الإهمال أو النسيان .

وفى غير ما تعصب أو تحيز أو جنوح إلى جدال أو مكابرة أو عناد أقول : إن فى شعره وفى شعر كبار الشعراء من سابقيه ومعاصريه علوا عن المستوى العام للقراء ، ولكن هذا لا يصح أن يتخذ ذريعة إلى لوم أو انتقاص ، لأن الأدب أو الفن أو العلم على اختلاف ضروبه وتعدد ألوانه لا ينبغى أن يكون فى مستوى واحد من التدانى أو التوسط أو العلاء ، ذلك بأن له درجات من الأقدار والمستويات ، بل إن لكل مستوى من هذه المستويات درجات متباعدات متفاوتات .

وإنه لمن الشطط أن نكلف الشاعر العملاق التزام مستوى عام واحد ، لأننا بهذا الإلزام نقل حريته ، ونحتجزه فى نطاق ضيق لا يتعداه ، ونحول بينه وبين التحليق والابتكار .

والعجب أن الذين ينكرون على الشاعر تجويده وسموه وعزوفه عن المستوى العام لا ينكرون أن الرسم والموسيقى والغناء لها بطبيعتها وبطبيعة القائمين بها درجات متفاوتات .

وعجب آخر أنهم يجحدون المستويات فى لغة الأدب ولا يجحدونها فى لغة العلوم ، لأن الحقائق العلمية التى تنشر على الجماهير يعمد كاتبوها إلى التبسيط ليتفهمها كثير من القراء ، فإذا ما قصدوا بها طبقة أرقى كان التبسيط أقل مقدارا وأضيق نطاقا ، وهكذا حتى تصير ملائمة للمختصين بهذه الدراسات . فلماذا لا يكون من حق الشعراء كلهم أو بعضهم أن يعبروا عن أفكارهم وعواطفهم بأسلوب سام فيه غموض على العامة ، لكنه واضح للمثقفين أثير عندهم ، تستحليه أذواقهم وتهش له نفوسهم ؟

على أن استمساك عزيز أباظة بالفصحى وكلفه بالانتقاء ليس معناهما كلفه بالإغراب ، بل معناهما اتخاذ اللغة العربية متناولا وصرفا وسيلة للتعبير عن العاطفة أو الفكرة ، وتنحية العامية عن الأدب الرفيع ، حتى لا تقع العين فى حديقة الشعر أو بستان النثر إلا على وردة متفتحة ، أو جلنارة متوهجة ، أو أقحوانة مشرقة ، أو آذريونة نضيرة ، أو شجرة ثمرة ، أو دوحة وريقة أو نخلة رشيقة ، أو كرمة دانية القطوف ، أو عشب كالديباج .

من ذا الذى يقرأ أو يسمع هذه الأبيات ولا يشعر بانتقاء اللفظ وجزالة التركيب :

قال على لسان الرشيد فى مسرحية (العباسة) وهو يريد الوقيعة ببنى برمك لطغيانهم السياسى لكنه يتردد مخافة مما أشيع عن قصة أخته العباسة :

وإنى لأخشى قالةَ السوء فى غدٍ
تقاذف كالدفاع فى البيد والمدن
بأنى من أجل العرض أثخنت فيهم
وللعرض قراضون بالثلب والطعن

وقال على لسان عائشة فى مسرحية (غروب الأندلس) :

الملك يلهـــو والحوادث حولــه
متظاهرات والخطــــوب سراع

والقصر تفهـــق بالخنا قاعاتـه
ويبيت يـــروى إثمها ويذاع

والشعب مكدود القوى متخفر
إن الضعيف يصول حين يراع

الجوز مضروب السرادق حوله
والهون والحرمـــان والأوجـــاع

قـل للملوك اخشوا شعوبكم إذا
غضبوا وهم سغب البطون جياع

وقال على لسان بثينة فى مسرحية (غروب الأندلس) :

أرى الأرزاء مسرعة خطاهـــا
ونحن إزاءها نمشى الهـــوينا

إذا لم نسبق الأحداث وثبا
تصلينا لظاها فاكتوينـــا

٢ ــ على أنه أضاف إلى هذا التأنق كلفا بجرس الجملة وموسيقاها ، وشغفا بتحسس المواءمة بين الكلمة وسابقتها ولاحقتها ، وبين العبارة وما تقدمها وما تأخر عنها ، كقوله على لسان حسن شاه فى مسرحية (قافلة النور) :

مشوا فى سناه ولبوا نـــداه
وعبوا هداه كتـــابا مبينـا

ومن ذا الذى يقرأ هذه الأبيات أو يسمعها ولايستشعر الرنين بين الحروف المتحدة المخرج أو المتقاربة المخارج ، أولا يحس موسيقى الأسلوب الناشئة من تتابع كلمات متوائمة الجرس متلائمة الوقع ، قال فى (وقفة على قرطبة) :

ماذا دهاها فأمست وهى ناهدة
فى غير ما ألفته من معاطفها

طوفت بالطلل الأسوان أسألــه
أين الخلافة فى حضنى خلائفهـا

أين ابن بجدتها شعت حضارته
سنا على سالف الدنيا وآنفها

الباذل العلم عن أعلام جامعة
تدنى الثمـــار مزكاة لقاطفهـا

فزف كل كبير من عواهلها
وخف كل وقور من أساقفهـا

وإذا كان الجرس بينا فى البيت الأول بين (دهاها وناهدة) وبين (ألفته ومعاطفها) وبينا فى البيت الثانى بين (الأسوان وأسأله) و (الخلافة وخلائفها) ، وفى البيت الثالث بين (ابن وبجدتها) و(سناوسالف) وفى البيت الرابع بين (العلم وأعلام وجامعة) وفى البيت الخامس بين (زف وخف) وبين (كبير ووقور) فإن هذا كثير فى شعره مثل قوله :

يارب رب مســـــىء
بغـــى فتـــاب وكـــبر

٣ – وشعره حافل بالتشبيه والاستعارة والمجاز والطباق ، فى مهارة ولباقة وطواعية ، كقوله :

أرنو فيرتد طرفى راعشا وجلا
كهائب اللُّجة الكبرى وخائفها

وقوله :

وأنّ نعـــــى بلا رىّ
وأنت البحـْرُ والقطـْــــرُ

وقوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس
إلا شفافة راح مـــن عوارفها

وقوله :

حيتك مصرُ فقد حميت ذمارها
والخطبُ فوارُ المراجلِ حامى

وقوله :

طوّفت بالطلل الأســوان أسألــهُ
أين الخلافة فى حضنى خلائفها ؟

وبعد

فماذا نستوحى من احتفالنا بذكرى عزيز أباظة ؟

إننا نستوحى دروسا وعبرا عظيمة .

١ – فنزداد ثقتنا بلغتنا وبشعرائنا وأدبائنا الذين كتبوا بالفصحى منذ زمن بعيد ، ومازالوا يكتبون ، فأثبتت الفصحى على أقلامهم أنها ثرية مرنة طيعة قابلة للتطوير والتجديد ، قادرة على التعبير عن أنماط فنون الأدب وشئون الحياة .

٢ – ونعلم أن الشعر العربى ليس عاجزا عن مسايرة المسرح كما قيل ، فقد استطاع أمير الشعر أحمد شوقى أن يبطل هذه الدعوى بمسرحياته التى ابتكرها ومهد بها الطريق لمن جاءوا بعده واقتفوا أثره ، فلما قضى حمل الراية بعده بيد فتية قوية عزيز أباظة :

٣ – ومن الوفاء لعزيز أباظة أن أنوه بوفائه وبتقديره العظيم لشوقى ، فى قوله : « ثم أراد الله للشعر المسرحى أن يعرف فى العربية ويزدهر ، فهدى إليه شوقى شاعرنا الخالد فعالجه ، واستطاع قبل أن يختاره الله لجواره ببضع سنوات أن يزف للشرق العربى مسرحياته النفائس ، ولست هنا بسبيل تناول مسرحية الشعر عند شوقى بالدراسة والتحليل والنقد ، فإنه لن يرضينى – وأنا من أكثر الناس إعجابا به ، وإكبارا له ، واستمدادا منه – أن أجعل دراسة مسرحه قسما من بحث ، أو بابا فى فصل ، ولن يواتينى الوقت حتى إذا أنا حاولت ، ولكن ذلك لن يقف بى أن أشهد بين أيديكم أن شوقى صاحب شعر التمثيل كاد يرتفع إلى عليا المشارف التى تفرعها شوقى قيم شعر الغناء .

وأشهد بين أيديكم إلى جانب ذلك أن شوقى فى مآسيه المتعددة وفى ملهاته الواحدة استطاع أن يدرس على طريقته جوانب من النفس الإنسانية ، وأن يعرض لمشاعرها بالتحليل الموفق ، والعرض المنمق ، واستطاع أن يتناول الأحاسيس والنزعات القومية ،

وأن يشيد بها فى نماذج قوامها الصدق وملاكها الجمال ، واستطاع كذلك فى أغلب مسرحياته أن يفرغها فى القوالب الحية من الفن المسرحى ، وأن يتحرر إلى حد كبير من سلطان طاقته الغنائية الفارعة حتى يتسلل الحوار غير فأضل على مقتضياته ، وغير مخل بالمعنى الذى يتدافع فيه ، وغير مسىء لأسلوب العرض ، وغير معوق لتتابعه وصلاته وتدفق حركاته .

٤ ــ ولست أنسى أن هذه الذكرى تلهمنا أن نشيد بجهود شعرائنا وكتابنا فى مصر وفى الأمة العربية ، وإنها لجهود عظيمة مخلصة جديرة بالتقدير والثناء ، ذلكم بأنهم منذ مشرق هذا القرن طالما هتفوا بالقومية العربية وبالوحدة العربية ، وطالما تغنوا بما للعرب من ماض مشرق مجيد يجب أن يتأسوا به ، وطالما برموا بما قاساه العرب من حاضر جزين خزيان لابد أن يتحرروا منه ، وطالما جلجلوا بما يشرئبون إليه من مستقبل كريم بسام ، عليهم أن يجدوا لتحقيقه ، فكانت هذه اليقظة العاملة ، وكانت هذه النهضة الشاملة ، وكانت هذه الصوّى الهادية إلى طريق الوحدة والقوة والعزة .

ومامن شك فى أن للأدب فضلا فى هذا كله لايجحد ، وسبقا واضحا مشهوداً لايستبعد . فعلى الذين يُنْغِضون إلى الأدب رؤوسهم أن يعلموا أثره العظيم فى حياة الأمم ، وأن يعرفوا مكانته وأن يقدروا سدنته أحياء وموتى :

سيدى الرئيس :

سيداتى وسادتى :

إذا كان عزيز أباظة فارقنا ، فإننى أتخيله بقامته الفارعة ، ووجهه المشرق ، وخطواته المتئدة وصوته الجهورى ، أتخيله مازال يخطر بيننا فى المجمع ، أو يناقش فى كلمة ، أو يخاور فى فكرة ، وأتخيله هنا على هذه المنصة نفسها يرثى زميلا ودع الحياة ، فيسكب من ذوب قلبه ومن عصارة نفسه :

ثم قضت إرادة الله أن يبعد من كان دانيا ، وأن يصمت من كان صادحا تاليا ، وأن أرثى من كان بالأمس راثيا ، وعزاؤنا أنه حى بيننا بآثاره وبذكراه إلى ماشاء الله :

---

(١) البحوث والمحاضرات لمؤتمر المجمع ١٩٦٠ - ١٩٦١ صفحة ١٥٠

●●● قصيدة الأستاذ العوضى الوكيل :

تهاوى دراكا كالنجوم الزواهـــــر
صحابك ، فاصبر — إن قدرت — وصابر

خلا الدرب إلا من خطاى وئيـــدة
وأقفـــــر إلا من شحوب مشاعرى

وأبقيت وحدى أجرع الحزن بعدهم
وأرشف كأس الدمع رشف المعاقر

وأمست تهاويل الغـــروب تروعنى
كأن فؤادى فى مخـــالب كاسر

أفى كل يوم صاحب بعد صاحب
توسده كفاى ليل المقابر

أأدفـــــن قلبى فلـــذة بعـــد فلذة
فيالك من جـــد على الدهـــر عـاثر

مضوا والصبا ، واستبقوا الحزن طاغيا
وذكرى تشب الشجو فى كل ذاكر

وكنت أظن الدمع عوناً على الأسى
فمزقنى فيض الدموع البـــــوادر

فياليت شعرى هـــل تهزم صدره
بفحواه شدوا وهو بين الحفائـــر

وهـــــل شهدته مقلتاه فغــــردت
جوانحـــــه لحناً كلحن القياثر

وهل هزه يوم العبـــور فجمجمت
تجاليد روح فى الصفائح طاهــــر

فغنى لوصالين فى الروع خطـــوهم
وغنى لبنـــــائين صم المعابـــــر

وهـــل خفقت أعلام سيناء فانتشى
كما رشف الندمان جـــــريال عاصر

أحب ثـــرى مصر ، وغنى بقدسه
فلاحت لـــه حصباؤه كالجـــواهر

وأذكت ليالى الرقمتين فـــــؤاده
على شط مصر فى الضفاف النواضر

مضى الشاعر الشادى الذى طار شعره
فألهم فى أفنانـــــه كل طائــــر

* * *

مضى الشاعر الشادى بأحلام قومـــه
حميدا ، وأبقى لوعة فى السوامـــــر

مضى لم ير النصر الذى بشرت بـــه
أناشيده فى كل بـــــاد وحاضر

أيا شيخة الفصحى ، وحراس قدسها
بتلك العقول الملهمات العباقـــــر

تذودون عنها كل بـــاغ يرومها
بسوء ويرميها بحقـــــد المكابـــــر

ولم أر كالفصحى فإن بيانهـــــا
ليبرز أخفى ما اختفى فى السرائـــر
لعمـــرك ما عيت بمعنى ، وإنمـا
هو العىّ فى بعض النهى والخواطـــر
ورام رماها بالقصور عن المـــدى
وما هو إلا قاصر أى قاصـــــر

* * *

عجبت لقوم جددوا الشعر ضلـــة
فجاؤا بشعر سائب متناثـــــر
تجافـــوا به عن كل معنى وفكرة
كأن المعانى حجبت بستائـــــر
ويصغى إليهم سامع القوم سائـــلا
أذلك شعـــــر أم تعازيم ساحر
رماهم عـــزيز بالمقال فأجفلـــوا
وأعـــول منهم زاحر بعد زاحر

وكـــــر عليهم بالقصيد يصـــوغه
فيبـــــدع فى التصواغ إبداع قادر
أقام عليهم حجـــة الفن باذخـــا
بشعر كسر الراح فى روح ساكر
مضى الشاعر الشادى الذى طار شعره
فألهم فى أفنانـــــه كل طائر
مضى الحارس اليقظان وانتابه كرى
يفىء إليـــه كل غاف وساهـــر

* * *

صديقى ، وشيخى ، قد رحلت وإنما
أغالب فيك الحزن والحـــزن قاهرى
وأشهد فيك الخطب أنّى حملتـــه
وإن لم أكن — لما دهانى — بصابر

●●● كلمة الأسرة للأستاذ ثروت أباظة :

طالمـــا بت بـــواد مذئب
فاصعد اليومَ إلى الـــوادى الأمين
عنـــد جنات موشاة الحـــلى
بين أنهـــار وأبرار وعـــين
ضيفَ ذى العـــزة جلت وعلت
بارئ الأنفس من حمـــأ وطين
غافـــرِ الذنب رحيم منعـــم
قـــابل التوب غياثِ المستعين
لم يمت من زايـــل الدنيا إذا
صب فى مسمعهـــا بعض الطنين

يا عشياتى التى أجـــزعها
سامداً أدعم رأسى بيمينـــى
زاكىَ اللوعـــة ملتاح الجوى
وأكف الأدمـــع محموم الأنين
لا تقولوا : من أخو البث الذى
هاجنا ؟ من صاحب اللحن الحزين ؟
النفاثات نفاثـــاتى أنـــا
والشئون المستهلات شئـــونى
يا أودائى الـــذين ارتحلـــوا
هـــزنى الشوق لكم فانتظرونى

رحمه الله لقد أبى أن يجشمكم عناء رثائه فرثى نفسه إليكم فى آخر قصيدة ألقاها فى مجمعكم ، رحمه الله :

فقد كان لنا ــ نحن أهل بيته ــ عمادنا الذى تقوم عليه خيمتنا ، وعميدنا الذى تدور حوله مسابحنا ، وعمودنا الذى يلتف حوله ندينا ، فقد صرنا ولا خيمة لنا ولا عماد ولا مسابح لنا ولا عميد ولا ندى لنا ولا عمود .

لنا وقد كان لمصر وكأن شوقى لم يقل أبياته إلا ليقولها من بعده عزيز أباظة :

رب جـــار تلفتت مصر توليـــه
ســـؤال الكريم عن جـــيرانه
بعثتنى معـــزيا بمآقى وطـــنى
او مهنئـــــاً بلسانـــــه
كان شعـــرى الغناء فى فرح الشرق
وكان العـــزاء فى أحزانـه

وكان لكم أنتم يا رجال الخلود شعركم ، ومجمع حبكم ، كما كنتم جماع حبه ونبض فؤاده ومبعث اعتزازه وإكباره .

واليوم لم تبق إلا كلمة عزاء تقولونها وأنا أدرى أنه أكبر عندكم من العزاء : وكلمة شكر أقدمها إليكم ، ومن أنا حتى أقدم إليكم الشكر ؟ !

فيا سدنة الأدب ويا رواد الكلمة ، ويا عمالقة لغة القرآن لاتقولوا عزاء واستميحكم المغفرة ، فإنى لن أقول شكرا .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٤ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره فى الجيزة حفل تأبين للمرحوم الأستاذ محمود تيمور عضو المجمع ، وفيما يلى ماألقى فى الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم :

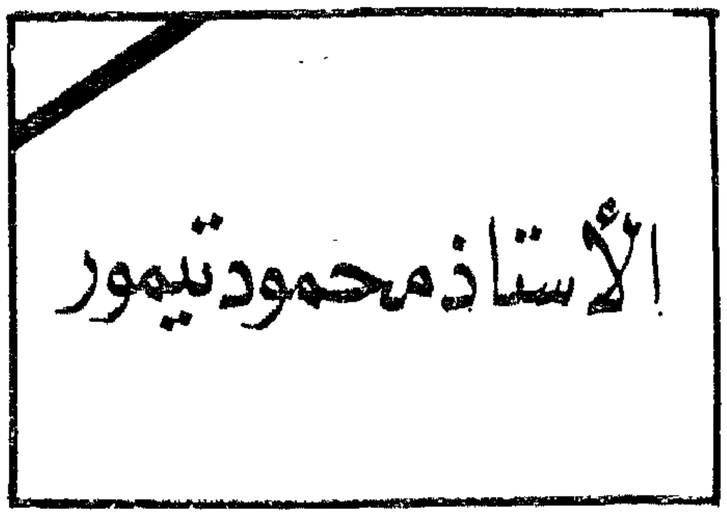

سيداتى وسادتى :

إنه ليحز فى قلوبنا نحن أعضاء المجمع أن نرى الموت يتخطف زملاءنا واحداً وراء آخر ، وفى فترات متقاربة . فما تكاد تجف دموعنا على زميل راحل حتى تعود فتنهمر على زميل آخر . ففى سنتين اثنتين فقد المجمع عدداً كبيراً من أعضائه العاملين الذين كنا نعتز بهم ونعتمد فى تحقيق رسالة المجمع على جهودهم ونشاطهم ... مصطفى نظيف ، عبد الفتاح الصعيدى ، عبد الرزاق السنهورى ، محمد عوض محمد ، مصطفى القللى محيى الدين عبد الحميد ، على الجندى ، عزيز أباظه ... وها نحن اليوم نضيف إلى هذه القائمة الحزينة اسمين من أحب الأسماء إلينا ومن أعزهم علينا : محمود تيمور ، وطه حسين .

لقد كانت فجيعة المجمع فى تيمور فجيعة قاسيه أليمة. لقد فقدنا فيه ثروه أدبية لغوية ضخمة ليس من السهل أن تعوض .

فقد شارك الفقيد فى كثير من أعمال المجمع ولجانه ، وكان له فيها آراء ومقترحات كان لها الأثر فى توجيه أعمالنا ، ولكنه فى السنوات الأخيرة عكف على ناحية خاصة من نواحى النشاط اللغوى وقصر عليها جهوده المجمعية وهى تعريب ألفاظ الحضارة. كان الفقيد يؤمن إيمانا صادقا بأن تعريب هذه الألفاظ هى الرابطه الوحيدة التى تربط المجمع برجل الشارع أو بجمهور الشعب . وعكف الفقيد على هذه الناحية واستطاع أن يخرج هو ولجنه ألفاظ الحضارة التى كان يرأسها ، عشرات المئات من هذه الألفاظ الحضارية ، تناولت ملابس السيدات وملابس الرجال وأثاث المنازل وأدوات الزينة وأدوات بعض الصناعات ، وكذلك مصطلحات الفن من رسم وتصوير

ومسرح ، لكننا إذ نبكى الفقيد اليوم ، لا نبكى فيه عضوا مجمعياً نشيطاً منتجاً فحسب وأنما نبكى فيه علما من أعلام الأدب ورائدا من رواد القصه ، بل ونبكى فيه أديبا عالميا تجاوز نشاطه الأدبي حدود البلاد العربية ، فترجمت معظم قصصه إلى مختلف اللغات ، وكرم فى كثير من المحافل الدولية الأدبية .

أما أخلاق الفقيد فحدث عنها ما شئتم وكيف شئتم فقد اجتمع له من الصفات والخلال والسجايا ما قل أن يجتمع لكثير من الناس. شخصية رقيقة مهذبة ، هدوء مع اتزان ، أدب جم مع عفة فى اللسان ، تواضع فى عزة نفس وإحساس مرهف .

لقد عاصرنا الفقيد، فى المجمع أكثر من أربع وعشرين سنة، فما أذكر أنى رأيته يوما غاضبا من أحد ، أو ساخطاً على أحد، وإنما كان محباً للجميع محبوبا ومحترماً من الجميع .

رحمه الله وطيب ثراه وجعل الجنة مستقرة ومأواه .

أما الآن أيتها السيدات والسادة ، فسيتولى الزميل الاستاذ محمد خلف الله أحمد ، تأبين الفقيد نيابه عن المجمع ، ثم يليه الزميل الدكتور إبراهيم أدهم الدمرادش فيلقى كلمة الشعر، ويليهما الأستاذ أحمد فؤاد تيمور فيلقى كلمة الأسرة . وليتفضل الأستاذ خلف الله مشكوراً .

●●● كلمة الأستاذ محمد خلف الله أحمد :

أى صديقنا ، وزميلنا ، وأديبنا الكبير «محمود تيمور» .

سلام عليك ، وأحسن الله عزاء المجمع فى فقدك .

وجزاك الله خيراً عن وطنك «مصر» بقدر ما أخلصت لها ، وأضفت إلى أمجادها بفنك العبقرى وأدبك الإنسانى .

وشكر الله لك ما قدمت للعروبة لغتها، وأدبها وحضارتها ونهضتها الحديثة .

أى زميلنا العظيم :

لقد فجعنا الموت فيك ، وفى نخبة من الأصحاب ، توالت بك وبهم الركاب ، فى أشهر متتابعات ؛ فجل الخطب ، وفدح الأمر ، وكاد الأسى يغلب التأسى ، وإنا لفراقكم لمحزونون، ولكننا بقضاء الله راضون وبالصبر متواصون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون :

أخى الأكبر تيمور :

إن كنت أرثيك اليوم باسم مجمع اللغة العربية، الذى كنت علما من أعلامه، وأسجل ما يسمح

« موقف التأبين من أياديك على الأدب واللغة وأنشر صفحات من جهودك فى تحقيق رسالة المجمع ، فإنى أبكى فيك اليوم صديقا أصفيته وأصفانى الود ، وحظيت منه — على مدى ثلاثين عاما — برعاية الأخ الأكبر لأخيه وتعهده إياه بمدد متلاحق من ثمار إبداعه الأدبى والعلمى ، كل حلقة فيه ستبقى — ما حييت — ذكرى إخاء سمح ووداد خالص :

وسأظل أذكر — ياأخى — مجالسنا وندواتنا فى أسرة «آداب الإسكندرية» ، والهيئة المحلية لرعاية الآداب والعلوم الإجتماعية بها ؛ فقد كنت تخصها بمزيد من حبك وعنايتك ، وتخفّ لاستجابة دعوتها ، محاضراً ، أو متحدثا ، أو محكّما فى مسابقة أدبية ، وكان شبابها وكهولها يلتفون حولك ، سعداء بلقائك ، ظمأ إلى سماع حديثك ، حراصاً على ألا يطول انقطاعك عن زيارتهم . ومنذ جمعت القاهرة شملنا فى مجمعها وهيئاتها الفكرية والأدبية ، على مدى الخمسة عشر عاما الأخيرة ؛ نما حبى وتقديرى لك ، وزاد رصيدى من جميل الذكريات ، وفى الذكريات سلوى وعزاء .

رحمك الله ياصديقى ، وأكرم فى الفردوس مثواك ، والسلام عليك :

سيدى رئيس المجمع بالنيابة ، سيداتى وسادتى ،

إن الزميل الراحل الذى اجتمعنا اليوم لتأبينه ، ولد فى السادس عشر من يونيو سنة أربع وتسعين وثمانمائة وألف ، وانتقل إلى جوار الله فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس الماضى من سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف — عن تسعة وسبعين من الأعوام ، يمثل ثلثها الأول مرحلة الإعداد والتفتح للرسالة التى اضطلع بها الفقيد على مدى خمسين عاما ، وورث بها الفكر العربى قرابة ستين كتابا فى مختلف ميادين اللغة والأدب .

وقد سجل لنا الفقيد فى بعض كتبه ؛ مثل : « شفاء الروح » اتجاهات الأدب العربى فى السنين المائة الأخيرة ، وفى بعض مقالاته وأحاديثه التى نشرت فى الصحف والمجلات — معالم المرحلة ، الأولى من وحياته ، والعوامل التى وجهته إلى أدب القصة والمسرح ، والمؤثرات التى عملت عملها فى إنماء موهبته الأدبية ، وأهم الكتب التى فتحت الآفاق الغنية أمام ذهنه وخياله ، وأشهر الكتاب الوطنيين والعالميين ، الذين أعجب فى شبابه بأدبهم ، وحاول أن يحذو حذوهم .

وكان من بين ما أبرزه فى بيئته الخاصة : أثر والده العالم المحقق « أحمد تيمور » ، ومكتبته الحافلة بكل نفيس من كنوز التراث والثقافة ومجالسه التى كانت تنتظم ببعض أكابر العلماء والمفكرين فى عصره : كالشيخ محمد عبده و« الشنقيطى » ، و«رشيد رضا» ، ثم أثر شقيقه « محمد » ، الذى تطلع إلى بدء عهد جديد فى حياة الأدب المصرى ، والذى مات فى شبابه ، بعد أن شارك بنصيب وافر ، فى التمهيد لنهضة الفن القصصى والمسرحى ، فى الأدب العربى الحديث

كما أبرز الفقيد أثر الحياة التى أتيح له أن يحياها فى الريف ، وما كان لها بعد من صدى — فى رسم شخصياته فى قصصه الأول :

وأخبرنا — فيما سجله من عناصر ثقافته وفنه — أنه كان فى شبابه يستمتع بأدب « المنفلوطى » إمام الرومانسية الأدبية فى مصر ، فى الربع الأول من القرن الحاضر ، وأن والده وجهه إلى قراءة « ألف ليلة وليلة » ، فطالعه بأكمله ، وكان يجمع من يرغب فى الاستماع إليه من أهل المنزل ويعيد عليهم تلاوة ما قرأ ، وأنه كانت له ولأخيه « محمد » محاولات ناشئة فى التحرير والتمثيل فى محيط الأسرة ومعارفها ، وأنهما حفظا — وهما صغيران — معلقة امرئ القيس ، وكان ذلك بتوجيه من والدهما .

وقد قرأ محمود — بتوجيه من أخيه — « حديث عيسى بن هشام ؛ لمحمد المويلحى » ورواية « زينب » لهيكل ، وأغرم بقصص الكاتب الفرنسى الشهير « موباسان » ؛ الذى توفى قبل ميلاد تيمور بسنة واحدة ، واتصل بالقصص الروسى وخاصة قصص « تشيكوف » « وتورجنيف » وأتيح له أن يسافر إلى أوربا ، فقضى فيها مدة معظمها فى « سويسرة » ، عكف فيها على الاتصال بالأعمال القصصية ، وعلى تعميق ثقافته الفنية والأدبية .

* * *

هذه أهم المعالم الأولى فى تكوين فقيدنا وإعداده لرسالته ؛ ومن حسن حظ التاريخ الأدبى أن الفقيد قد سجل خطوطها الرئيسية بقلمه ويسر بذلك مهمة المؤرخ والناقد وكاتب الحياة فى التصوير والتحليل والتعليل للظواهر الأدبية .

ولعلنا نستبق ما سيجئ من حديثنا لنقول : إن هذين العنصرين البارزين من عناصر التكوين والتنمية لشخصية « تيمور » الثقافية والفنية ، قد ظلا يعملان عملهما إلى آخر حياته . فقد كانت له طوال الثلاثين سنة الأخيرة أسفار إلى الخارج للاصطياف أو التماس السلوى بعد وفاة نجله محمد سعيد فى شبابه أو طلباً للعلاج لنفسه أو لأسرته وزادته تلك الأسفار تنوعاً فى مطالعاته ، واتساعاً فى تجاربه وصقلا لقوة الملاحظة عنده ، ورصيداً من المشاهد والمناظر وأنماط السلوك ، وأثمرت — فيما أثمرت — بضعة كتب فى أدب السياحة والرحلة تعد نماذج فى براعتها وصدق فنها ، وتؤلف خطاً هاماً من خطوط منجزاته .

أما حرص الفقيد على تنمية ثقافته ، فقد ظل ملازماً له طوال حياته وظلت الكتب القديمة والحديثة والمعاصرة من خير جلسائه . والمتتبع لسلسلة أعماله يلحظ شواهد تلك الصحبة الدائمة ، فى أسلوبه ، وفى مسرحياته ، وفيما يرد من إشارات ومقتبسات فى بحوثه ومحاضراته التى تؤلف خطاً ثالثاً فى منجزاته — ثم فى صوره الأدبية الوصفية التى رسمها لبعض الشخصيات البارزة المعاصرة فى عالم الفكر والأدب والفن وفى كتاباته التى كان يتابع فيها إنتاج القصاص المحدثين والمعاصرين بنقده ، أو يقدم له أو يعرف بأصحابه ، وهذه الصور الوصفية والكتابات الناقدة تؤلف مجالا رابعاً من مجالات النشاط الفنى للكاتب الكبير . ويبدو أنه كانت للفقيد فى تثقيف نفسه عناية خاصة بأن يكون ترتيل آيات

من القرآن الكريم أول مايفتح به يومه حين يصبح . وآخر ما يختتمه به حين يمسى ، وقبل أن يسلم أجفانه للنوم . وكان يجد فى ذلك توفير الصفاء والنقاءلروحه، حتى تشف وتخف وتسمو إلى الآفاق العليا ، حيث ينابيع التطهر والصفاء والسعادة. وقد كشف عن سر هذه التجربة فى كتابه : « شفاء الروح » ونصح لأخيه المؤمن أن يأخذ بحظ من هذه التجربة ، وهو يختم نصيحته هذه بقوله :

أخى المؤمن :

مزية جليلة أن يكون ذلك الذخر الخالد من كلام الله تراثاً دانياً منك، تلتمس فيه علاج نفسك وصفاء روحك ، وتمتلك به ناصية السعادة بمعناها الأسمى ؛ ذلك لأن هذا القرآن الكريم ينأى بك عن مكاره الأرض ليصل بينك وبين السماء :

إنى ألمح هنا سرا من أسرار تلك السماحة الباسمة المطمئنة الوئيدة الخطو ، التى كانت تهل علينا من ساحة دار المجمع إلى قاعة المجلس ، فإذا هى « محمود تيمور » يدلف إلى مكانه المعهود فى حياء وإشراق ، ليشارك فى أنشطة المجمع ، وليعرض عليه صيده الثمين من ألفاظ الحضارة ، ومن البحوث الممتعة فى الأدب واللغة .

وفى لغة تيمور وأسلوبه فى كثير من أعماله الأدبية نضرة من أثر ذلك النبع السماوى الصافى

* * *

سادتى :

مضت مرحلة الفتوة والشباب بإرهاصاتها الفنية ، وسار محمود تيمور فى مراحل تعليمه وجاءت نقطة التحول فى حياته — كما يقول حين أصيب بمرض التيفويد — وهو فى التعليم العالى فى سن العشرين ، وطال المرض وألزمه الفراش ثلاثة أشهر ، فلما أبل منه ، حال ضعف بنيته دون استئناف الدراسة ، وشعر باشتداد ميله للأدب ، فرسم لنفسه فيه دراسة شبه منظمة ، اتسمت بالجد والاستيعاب ، وسار فى مطالعاته فيه بهداية شقيقه . وحين كتب « محمد تيمور » أقاصيصه بعنوان « ما تراه العيون » ، ناحياً فيها نحو المذهب الواقعى ، مصوراً فيها مناظر مختلفة من البيئة المصرية وأشخاصها فى أسلوب سهل رشيق ، أعجب بها « محمود » ، فكتب على غرارها باكورته فى القصة « الشيخ جمعة » مترسما فى كتابته المذهب الواقعى :

وفى عام ١٩٢٥ رأى أنه قد تجمعت عنده مادة من القصص يصح إظهارها فى كتاب ؛ فطبع « الشيخ جمعة وقصص أخرى ».

من هنا ، وفقيدنا فوق الثلاثين بقليل ، يبدأ العمر الفنى للأديب القصصى الكبير ، ويتطور فنه ، ويتنوع إنتاجه بين أقصوصة وقصة ومسرحية ، وأدب أسفار ، ولقطات وصفية ، ودراسة لفن القصص ، ولبعض قضايا اللغة العربية ؛ وتأخذ شهرة أديبنا فى الاتساع ، وتبرز فى المحيط العربى : « شفاه غليظة » و « سلوى فى مهب الريح » و « حواء الخالدة » و « المخبأ رقم ١٣ » و « كل عام

وأنتم بخير » و « إحسان لله » و « ابن جلا » و « اليوم خمر » ،و « أبوالهول يطير » و« ملامح وغضون » ، و « شباب وغانيات » وغيرها مما وصل بتيمور إلى مرحلة الاعتراف الرسمى بمكانته ،علماً بين أعلام الفكر ، ورائداً لفن القصة فى الأدب العربى الحديث . وتجاوزت شهرة « تيمور » الأدبية حدود الوطن العربى فترجمت بعض أعماله إلى لغات أجنبية وتسامع به بعض علماء الاستشراق والمعنيين بالآداب العربية ، وكتب عنه بعضهم — مثل «كراتشكوفسكى» الروسى و «عبد الكريم جرمانوس » المجرى ـ كتابة تؤرخ مولد القصة المبتكرة ذات الطابع العربى الصميم ، وتشهد بارتفاع تيمور إلى مصاف الفلاسفة الأدباء ومعلمى الثقافات .

ومن أوائل ما يطالعنا من الاعتراف الفنى والرسمى بتيمور فى بلده مصر — ومن المظاهر الأولى فى صلته بالمجمع — أن اختارته وزارة المعارف والمجمع اللغوى فى سنة ١٩٤٢ عضواً فى لجنة مسابقة القصة التى نظمتها وزارة المعارف ، ودعت فيها الأدباء إلى تأليف قصـــــة ينتفع بها الطلاب وأمثالهم من المثقفين ، ثم أحالت أمر هـــــذه المسابقة إلى المجمع لتتولى التحكيم فيها هيئة ممن ندبتهم الوزارة لهذه المهمة بالاشتراك مع لجنة الأدب والنصوص بالمجمع ،وبلغ عدد أعضاء تلك الهيئة أحد عشر ؛ بينهم لطفى السيد ، وهيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، وطه حسين والحارم ، وتيمور ، كلهم من قادة الفكر والأدب فى تلك المرحلة (مجلة المجمع عدد ٥)

وفى سنة ١٩٤٧ وافق مجلس المجمع على اقتراح لجنة الأدب فيه تتويج جميع الإنتاج القصصى باللغة العربية الفصحى لمحمود تيمور، ومنحه وحده جائزة القصة فى المسابقة التى كان المجمع قد أعلن عنها من قبل فى ميدانى القصة والبحوث الأدبية ،وفى شهر مارس من ذلك العام أقام المجمع حفلا عاماً بقاعة الجمعية الجغرافية لإعلان تلك الجوائز (مجلة المجمع العدد ٧) وألقى « فريد أبو حديد» كلمة القصة فى ذلك الحفل وفيها عرض للقصص وتاريخه وأهدافه ، ونصيب الأمم القديمة فى نشأته وتطوره، كما أشار إلى طائفة من أعلام القصة وانتهى إلى التعبير عن اغتباط مصر بظهور طائفة من نوابغ أدبائها الذين توفروا على الإنتاج الأدبى فى شتى الفنون ؛ من شعر وأدب وقصص وأعلن أن المجمع اللغوى قد اختار فى هذا العام من بين المبرزين فى القصة ؛ الأستاذ محمود (بك) تيمور ، فأهداه جائزة القصص. إشارة منه إلى هذا المعنى ، واعترافاً بما للأستاذ الكبير من أثر محمود فى فن القصة فى أدبنا الحديث.

وقد أحصى المتحدث مؤلفات تيمور إلى ذلك التاريخ فكانت خمسة وعشرين كتاباً، وبعد أن أشار فى إيجاز إلى الفرق بين آثار تيمور الأولى وآثاره الأخيرة قرر أننا لسنا نبالغ إذا قلنا إن تيمور ا قد بلغ فى بعض قصصه الأخيرة مرتبة عالية ، يحق لنا أن نفاخر بها

وأجمل « أبو حديد » ما تمتاز به طريقة تيمور فى ثلاث :

الأولى : أنه يرسم أشخاص قصته حتى إنك لتحس أنفاسهم ، وتلمح الحياة فى سهولة حركاتهم :

والثانية : أنه يكتب فى لغة سلسة لا تحجب شيئاً من معانيه :

والثالثة : أن فنه يشيع فيه روح وديع من الإنسانية لا تحس معه مرارة فى وصف حتى ليكاد يحبب إليك الضعف الإنسانى.

وكأنما كان تتويج المجمع جميع الإنتاج القصصى لمحمود تيمور ومنحه وحده جائزة القصة ، جواز مروره لعضوية المجمع بعد ذلك بسنتين ، فقد ائتمر به صديقان له : « أحمد أمين وطه حسين » فرشحاه ، ولم يكادا يعرضان هذا الترشيح حتى أجمع المجمعون على اختياره ، وإذا هو — كما يقول « طه حسين » فى استقباله — قد التهمه المجمع التهاماً ، كما التهمته اللغه العربية الفصحى التهاماً من قبل. كانت جلسة الانتخاب فى أواخر عام تسعة وأربعين وتسعمائة وألف ، وكان حفل الاستقبال فى جلسة علنية فى السادس والعشرين من شهر يناير سنة خمسين وتسعمائة وألف ، وناب عن المجمع فى هذا الاستقبال « طه حسين » ، وتضمنت كلمته لمحة لتاريخ أسرة تيمور ، وحبها للعلم والأدب ، وما كان للجد والأب والعمة والشقيق من أثر فى ميادين الفكر والشعر والقصص والتمثيل ، وامتياز « محمود تيمور » فى فن القصص على مفهومه الحديث امتيازا سجل به لنفسه خلودا فى تاريخ الأدب العربى ، ووصف تيمورا بأنه كاتب حلو النفس ، عذب الروح ، خفيف الظل لا يثقل على قرائه مهما يطيلوا عشرته : ويؤكد طه حسين أنه حين تلقى « سلوى فى مهب الريح » وهو فى فرنسا مشغول بما كان يعكف عليه من قراءة الأدب الفرنسى مابدأ يقرأ قصة تيمور حتى أتمها على طولها ، ولم يقطع القراءة إلا حين لم يكن من قطعها بُدّ . وأعجب طه حسين — فيما أعجب به — من قصص تيمور « بشفاه غليظة » : وطاب لطه حسين فى فن هذه القصة أن يلحظ أن الذى استهوى بطل القصة وملك عليه لبه وفؤاده كله هو شئ فى إحدى الشفتين ، نتوء ضئيل جدا فى وسط الشفة ، لا ينفرج ولا يتسع ولا يتيح لهذه الشفة أن تستوى إلا حين تضحك الفتاة أو تبكى أو تأخذها ثورة من ثورات العاطفة .

و « طه » إذ يكشف هذا السر بخبرة القصصى الناقد المحنك ، يتجه إلى تيمور ، فيقول له :

هذا النتوء اليسير كان مدار قصتك كلها ، من أولها إلى آخرها : شىء يسير جدا فى شفة فتاة من الفتيات ، رآها محام ففتن بها وهام بها الهيام كله : : : : . . وكذلك أنت فى كثير جدا من قصصك ، أو فى كل قصصك تصل أو تستكشف شيئاً يسيرا ،

وتجعله مداراً للقصة ، تعود إليه كأنه لحن من هذه الألحان اليسيرة التى يبنى الموسيقى عليها قصته . فأنت تجد فى قصصك فكرة أو صورة أو خاطرة دقيقة يسيرة ، تدور عليها قصتك فتستهوى وتخلب وتستلب القلوب

(مجلة المجمع عدد ٨) .

هذا التأكيد للتتويج المجمعى لآثار تيمور القصصية تبعه تأكيد ثان من الدولة فى السنة التالية حين منحته جائزتها فى الآداب على مجموعتى قصصه : «إحسان لله » و« كل عام وأنتم بخير» . وظفر تيمور فى تلك السنة أيضاً بجائزة واصف غالى فى باريس ، على كتابه المترجم إلى الفرنسية « عزرائيل القرية » .

ولم يكن تتويج آثار تيمور القصصية فى سنتى ١٩٤٧ و ١٩٥٠ آخر عهد المجمع بتكريم تيمور حياً ، فقد رشحه بعد ذلك فى سلسلة ترشيحاته السنوية لبعض أعضائه لجائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، وشاركت المجمع فى هذا الترشيح بعض الهيئات الأخرى ، وأقر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منح تيمور تلك الجائزة فى سنة ١٩٦٢ وجاء فى تقرير لجنة الفحص بالمجلس : « وله نيف وخمسون كتاباً ، طبع بعضها عدة طبعات ، واستمتع بقراءتها عشرات الآلاف من قراء العربية ، واهتدى بهديها الفنى عديد من كتاب القصة والقصة القصيرة وامتد تأثيره من البيئة المصرية إلى أجزاء الوطن العربى الكبير ، وقد أحلّه النقاد منزلة ممتازة بين رواد الأدب العربى الحديث وموجهيه وامتدت شهرته عن طريق كتبه المترجمة إلى مختلف الألسنة والبلاد ، فقد ترجم عدد كبير من أعماله إلى عدة لغات أوربية وآسيوية ؛ كالإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والإندونيسية والأردية .

وهو بذلك ذو منزلة رفيعة ممتازة فى حياتنا الأدبية (جوائز الدولة — المجلس الأعلى ١٩٦٢) قد أيد هذه الألوان من التكريم الفنى والعلمى شكول من التكريم الرسمى فيما منحته الدولة إياه من الأوسمة الرفيعة .

سادتى :

نستطيع أن نقول إن العمر الفنى للفقيد — وقد اعتبرنا بدايته سنة ١٩٢٥ — قد بلغ تمام رشده ونضجه حوالى منتصف القرن الحاضر .

وقبل أن تسلمنا هذه المرحلة إلى العشرين سنة الأخيرة من حياة فقيدنا والتى تبدأ مع بداية ثورة التحرير المصرية ، نتلبث قليلا لنشير إلى معلم من معالم المرحلة الماضية ليس بالقصة ولا المسرحية ولا الدراسة العلمية ، ولكنه كتاب رحلة من أبرع ما عرفه أدبنا العربى فى هذا الباب ومن أشده استحواذاً على النفوس : فناً وأسلوباً ؛ وقد شاء القدر أن يقوم تيمور بتلك الرحلة إلى أمريكا بعد سنوات قليلة من فجيعته وفجيعة الأسرة بفقد نجلها « محمد سعيد » فى ريعان شبابه إثر مرض وقف الطب إذ ذاك عاجزاً عن علاجه .

وكتاب الرحلة هذا — وعنوانه «أبو الهول يطير» — سجل فنى سجل فيه كاتبنا وصفاً تـ ويريا لعظم ما رأى فى طريقه وفى أثناء إقامته فى نيويورك لعلاج السيدة قرينته . وصدره بإهداء مؤثر ، يقول فيه :

« إليكَ . . . .

إليك يا أعزَّ من أحببته ، ويا أعز من فقدته .

إليك أنت ، يا من لا أسميك . . فإن اسمك لم يعد يجرى على لسانى منذ أضعتك .

إليك أخط هذه الرسائل .

إنى لأبعث بها واحدةً تلو الأخرى ، لعلى أتنسم من توجيهها إليكَ بردَ السلوى ؛ وإنها لتطالعك فى عاليك العلوىّ ، لعلها تحمل إليك خوالج القلب ونجوى الضمير !

تهتاج بين جوانحى رغبة متقدة فى الكتابة إليك ، فى مخاطبتك ؛ فى فك الإسار عن نفسى التى تتنزّى فى القيود والأصفاد . . » .

. . . . . وتسير الرسالة على هذا المنوال الحزين حتى تغول :

« تلك هى الرحلة الأولى التى تتخلف فيها عن مرافقتى ، فلقد نعمت بصحبتك فى أسفارى جميعاً .

أنت تتخلف عنى اليوم على الرغم منك ، وأنا أرحل الساعة بدونك على غير إرادة منى ، إنها يا بنى مشيئة القدر ، ومن يردُّ القدر إذا شاء . . . »

. . . . إنى لأزمع الرحيل لا تسريةً عن النفس ، ولا إشباعاً لفضول ، بل لأرافق شخصاً عزيز المكانة فى قلبينا ، يلتمس الشفاء فى تلك البلاد القاصية » .

أما كان أحرى أن تكون مكانى ترعى هذا العزيز فى غربته وتدعنى مكانك أتوسد الثرى عنك ! . . . » .

ويبلغ الإهداء ذروة المأساة حين يصل إلى ذكر المرحلة الأخيرة من مرض ابنه ، ويهمس الأب الحزين فى حسرة واستسلام :

« لقد تطايرتَ من بيننا يا بنى كما يتطاير العطرُ من قارورة رُفعت سدادتها فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكنا ظللنا نشمُّك طيباً يشيع فيما حولنا من أجواء » .

وتبدأ الرسالة الأولى من رسائل الرحلة [مؤرخة ٤ من أبريل سنة ١٩٤٦ ، وتشعر وأنت تقرأ الأسطر الأولى منها ، أن الأب الحزين [الصابر يُصرّ على أن يتحدث إلى ابنه فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الرحلة ، حتى لا يفوته منها شىء ، وكأنه على عهده يرافق أباه ، ويشهد المشاهد معه ، بما فيها من جمال ومتعة ، وما فيها من غرائب ومفارقات ، وما تثير من شجون وذكريات ، وما يتمثل فى سلوك الأشخاص الذين يتحركون على مسرحها من بواعث الفكاهة والسخرية أحياناً ، ومن مسبِّبات الألم والضيق أحياناً أخرى .

تصف الرسالة ما يحيط بالمسافر ، بعد أن تحدد ميعادسفره ، من مشاغل متزاحمة ، ومن إجراءات معقدة ، يتعلم فيها المبتلى بها كيف يكون هجاماً لحوجاً ملحاحاً ؛ والمتاعب التى يصادفها حين يصل إلى الجمرك « تلك المؤسسة التى أنشأها قوم حاقدون على البشرية ، اتخذوها أداة تنكيل وسوط عذاب ، وضابط الجمرك الذى ترتفع يده بالخاتم العظيم ، تضرب هنا وهنالك فى مهارة حرية بالتقدير . . . إنه ليضرب ضرباً محكماً كأنما يسدد الطعن فى ميدان القتال . أخذ الضابط الهمام يجفف ما تغمّد من جبينه فى زهو النصر الغلاب . . ألم يؤدّ عملا بالغ الجلالة ، عظيم الخطر ! إن ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه العظيم كفيلة أن تقضى على صاحبها التاعس بالحرمان » .

وتحين ساعة الوداع ! ويقول كاتب الرسالة :

« وشعرت بغتة كأن قلبى تهصره يد قاسية : : :

وثارت بى فجأة ذكريات : : . ذكريات يزحم بعضها بعضاً . . . ذكريات شتّى جليلة . وتافهة . . . :

فى هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ! وتتداعى المشاهد فى مخيلتنا وتتلاحق سراعاً حتى تتجمع كلُّها وكأنها تدور حول محور واحد ، ولا تفتأ تدور ، وننظر إلى المودّعين نظرة ساهمة ، ونبدأ نودعهم مصافحين أو مقبّلين ، وتثور فى النفس رواقدُ الشجون ، وينكشفُ للمرء منا تفاهتُه العجيبة ، وتنهار فى لحظات تلك الشجاعة التى نتغنى بها مفاخرين ، فنغدو نحن الرجال ، أمام وداع طفل صغير ، قد تصاغرنا ، وأصبحنا فى مثل حجمه وعقله وشعوره :

أى بنى !

« إن وداع الأحياء رائع مثير لأخفى كوامن الشعور ، ولكن ثق أنه لا يقاس بشئ أمام وداع الراحلين » .

وتأخذك الرسالة الثانية معها على هذه الصورة حتى تصل بك إلى مطار « أثينا » ثم بعد استراحة قصيرة إلى باريس مارة فوق سويسرا ، ولا يفوتها أن تلقى معك نظرة على ما يتيحه المرور من جلال وجمال ، حيث الجبال الشوامخ تعتمّ قممها بناصع الجليد ، كأنها نساك من الشيوخ متعبّدون ، عليهم جلالة ومهابة ، ترفعوا عن زحمة الحياة ، وضجيج الأرض فخلوا إلى أنفسهم معتكفين : : ولا تلبث أن تلوح للأنظار باريس العظيمة ، غانية المدائن وفاتنة الحواضر ، ومحط الرحال من كل صوب وحدب ؛ ويستعد أبو الهول للهبوط ، ويتحسس صاحبنا وجهه فيصطدم بشعرات لحيته الخشنة تملأ عارضيه (وكان قد تحسس نذرها من قبل فى طريقه إلى أثينا) فيقول : ويلاه من تلك اللحى الكريهة التى تطلق لنفسها حرية النمو فى غير حياء

ولا تورع ! . : لقد نسيتك يا صاحبتى : سأقصد توا إلى المغسل لأزيلك فى طرفة عين » ! .

وتصف تلك الرسالة بعض مشاهد باريس، وقد تغيرت الحال ومظاهر المعيشة فيها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . ويسير صاحبنا — فى فوج من زملاء الرحلة مترجلين — إذ ليس ثمة من سيارة ترى ، ويبدأون يخترقون ساحة « الكونكورد » فإذا بها قد ران عليها خمول :

« وبدت المسلة المصرية ، وسط ذلك التجهم ، شامخة متطاعة فى ترفع وإباء ، كالنبيل المصفّد بالأغلال . .إنها هى وسط الظلام والسكون ، كما كانت هى وسط الأنوار السواطع والحركة الدائبة .. هى تلك الصّموتُ الأبيّة تنتظر فى صبر وأناة ساعة الخلاص ، ساعة الأوبة إلى الوطن » :

ولا ينسى « تيمور » — فى وسط ذلك كله — أن يرتب لك لقاء مع روح المقاومة الفرنسية فى أيام الاحتلال الألمانى على لسان نادل القهوة . وتسنح للكاتب فرصة السخرية المنتقمة من حوذى محطم أرهقهم عسرا فى مساوماته على أجرة الركوب فى مركبته التى لا بد أنه ابتاعها من سوق الأسقاط وباليات السلع !

ويتهيأ الركب لعبور المحيط الأطلنطى أو كما يسميه العرب « بحر الظلمات » ، ويستعدون لرحلة لاتستغرق أقل من إحدى عشرة ساعة، ويتسامى بالمسافرين صديقهم الكبير يضرب بهم فى عرض الأفق ، وقد اتقد حمية وحماسة ، ويرون السحب تنبسط على صفحتى المحيط وتغدو كأنها بساط من جليد :

وتبلغ الرحلة «نيويورك» ، وتثور بالكاتب — كما يقول — ثورة تطلع وفضول ، فكان يبعثر النظرات حوله فى تعجل ، يخشى أن يفلت منه شئ ، حتى تطالعه ناطحات السحاب بقوامها الفارع تستعلى ، ولا تنى تستعلى ؛ فهى تفصح لك عن مركب النقص فى النفس الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتية الناهضة التى أصابت ثروة واقتدارا ومكانة، نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة :

لست إلا أمة عظيمة !

وتجد عبقرية الكاتب المصوّرة — فى أمريكا — مجالها الواسع فى التسجيل والوصف والمقارنات بين الشرق والغرب ، والحديث عن الرجل والمرأة ، وما يسميه الأمريكيون جمال الجاذبية الأنثوية، والفرق بينه وبين الجمال المصرى النسوى ، الذى أنضجته شمس الصحراء ، وغذته خصوبة الوادى ، وروّاه رحيق النيل ، وشاعت فى سماته أحلام الشرق وأخيلته فأصبح «كوكتيل» الجمال الشرقى ، وغدا سحرا لا يفوق مستواه أى مستوى آخر للجمال العالمى :

وتأخذ معالم « نيويورك » ثم « وشنطن » بعدها أماكنها فى كتاب الرحلة بفنادقها

ومسارحها ودور السينما فيها ، والمتاحف القديمة والحديثة ودور الكتب ، وتسنح الفرص بين حين وآخر لاهتزازة قومية تثير فى نفس الكاتب الزهو والاعتزاز بوطنه ومجده القديم وحضارته أم الحضارات ، ويستيقظ بين جوانحه اغتباط حين يزور ركناً مصرياً فى أحد المتاحف ، أو يطّلع فى إحدى دور الكتب على مخطوطات وكتب من نفائس التراث العربى الإسلامى .

ويتم علاج الشخص العزيز ويأخذ المسافران طريق الأوبة ، ومنذ أن فصلت الطائرة عن «أثينا» متجهة نحو مصر ظل صاحبنا لا يستثنى إلا جوا واحدا ونسيما واحدا ، ما أطيب شذاه ، وما أكرم رياه ، ينفذ إلى سويداء القلب ، ذلك هو نسيم « مصر » ، وعطر الوطن ، ثم لا يلبث أن يستمع إلى صوت منبعث من قرارة وجدانه يتساءل :

« مالى ، وقد رحلنا عن « أثينا » واقتحمنا سماء بحر الروم ، واتجهنا صوب وادى النيل أحس وحشة غريبة تهب دفعة واحدة من جوف ذلك الغسق الذى تشق أستاره ، ويهيب بقلبه : أفصح أيها القلب . مما بك الساعة ! ».

ويصل الغائب الوطن ويقف على قبر ولده ويطّوف بمزاره ، ثم يرجع إلى داره ليخط إليه كلمات عجالا ، هى أخرى كلماته إليه فى هذه الرسائل .

وينتهى كتاب الرحلة برسالة من صفحتين إلى شريكة عمره ، ورفيقته فى السفر والحضر ، تحية محبة ورمز تقدير .

هذه الرحلة تحولت فى يد تيمور إلى شبه قصة تحقق فى نفس قارئها المتعة الفنية ، واللذة العقلية معاً ، وتثير عنده فى الوقت ذاته مشاعر الأسى والمشاركة الوجدانية .

والمحور الذى يمسك قصة الرحلة ويربط بناءها ، هو ذلك الغائب بجسمه ، الحاضر بروحه ، الذى لازم أبويه طوالها يتحدث إليهما ويتحدثان إليه ، ويشاركهما الذكريات والمشاعر التى أملت رسائلها . وهى كسائر أعمال « تيمور » نموذج فى الوضوح الفكرى والتعبيرى ، وفى غنى الثروة اللغوية التى تعجزها الاستجابة لتصوير الأشياء والأشخاص والمشاعر والمشاهد فى تنوعها ، بين شرقية وغربية ، وقديمة وحديثة .

* * *

ولتيمور فيما أخرج من سلسلة أدب الأسفار نموذج آخر ، أحدث من سابقه عنوانه : « جزيرة الجيب ومشاهد أخرى — سياحة فى إيطاليا » ، ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ أى قبل رحيله عن دنيانا بعشر سنوات يبدؤه بنبذة طريفة فاتحة لشهية القارئ عن بعض الفوارق الأساسية بين الحياة فى سويسرا والحياة فى إيطاليا ، يقول فيها :

« فالحياة فى سويسرا كأنها لحن قوى عنيف من الألحان الموسيقية الجسام التى تتطلب الإنصات فى توقر وخشوع ؛ ولكن الحياة فى إيطاليا ترنيمة رقيقة مرحة ، تترنح على نغمتها الأسماع فى كل آن وفى كل مكان .

وإن تلك الفوارق لتبدو حتى فى ألوان الطعام . . . الصحن فى سويسرا كأنما يقول لك : ماذا تبغى أكثر من غذاء نافع يوفر لك الشبع والعافية ؟

أما نظيره الإيطالى فيقول لك : هنيئاً مريئاً بما تنعم به من لون شهى المذاق يواتيك باللذة والإمتاع !

وعلى رأس المجالات التى تتجلى فيها هذه الفوارق مجالُ الجمال.. هو فى سويسرا – جمال هندسى منطقى، يقوم على التنسيق ، فيخاطب العقل، ويبعث على التقدير والإكبار، وهو – فى إيطاليا – جمال ثورى عاطفى ، يوقظ الفتنة ، فيناجى القلب ، ويبعث فى الجوانح حرارة الشوق والهيام :

و«جزيرة الحبيب» التى استمد منها الكاتب عنوانه هى جزيرة «كابرى»، تلك الجزيرة الصغيرة فى خليج « نابولى » والتى خلدت جمالها كثير من الأغانى الغربية العاطفية الراقصة؛ وقد تعهدها القوم ، فأحالوا حظها الوافر من جمال الطبيعة سحراً وفتنة . وهذه الملاحظة تثير فى نفس كاتبنا سؤالا ملحاً : إن مواطن من الفتنة والسحر تختبئ فى أرجاء الإقليم المصرى ، فمتى يتاح لها أن تدخل معهد التجميل لتخرج عرائس فى زينة وزخرف تغلى لها المهور من كل خاطب ود ؟

وانشغال الكاتب بوطنه ، وحنينه إليه ، واعتزازه بعراقة تاريخه وحضارته سمة بارزة من سمات هذا العمل الأدبى ، فالكاتب أينما سار، تتراءى له من جانب الوطن أطياف ، تهز منه كوامن المشاعر ، وتثير فيه غوالى الذكريات فيهتف من أعماقه : « رعاك الله أيها الوطن العزيز ، ما خطونا فى ديار الغربة خطوة ، إلا آنستنا منك آثار تذكرنا بك ، وتشدنا إليك ، وتزيدنا من ولاء لك وتمجيد، فأنت على البعد والقرب ملء وجداننا، مادبت فينا حياة » .

ويزور الكاتب حديقة روما ، وفيها مئات من التماثيل يتجمع بعضها فى بقعة ، ويتفرق بعضها فى شتى الأرجاء ،ولكل فئة من العظماء نصيب ملحوظ بين هذا الحشد من التماثيل ، فيبهر سائحنا بما يرى من روعة وجو روحانى، ولكنه لا يلبث أن تغشاه سحابة من الكآبة ، إذ لا يجد عربياً من قومه أتيح له أن يتبوأ مقعداً بين أولئك الأفذاذ الخالدين ، ولكن هذه السحابة تنقشع عنه حين يعلم أن « شوقى » شاعر العروبة والإسلام ، قد أخذ مكانه الجدير به بين الأنداد والنظراء من الشعراء ، فيقول : إنه فى الحق لانتصار للشرق بأسره قمين بالزهو والاعتزاز .

ومن سمات فن تيمور فى«جزيرة الحبيب» بل فى أدبه جملة – كثرة التشخيص للأشياء المادية ، ومخاطبتها ، وإدارة حوار معها ، كأنها أناسى تسمع وتعقل وتستجيب للهمس والمناجاة . وينجح تيمور فى هذا الكتاب النجاح كله – يسعفه فى هذا حس مرهف ، وقلم

ملهم ، وثقافة فنية عميقة واسعة ،فينقل إليك فى أعذب صورة من صور البيان ذلك الجو الحافل بالآثار ، ومواطن الجمال ومشاهد الذكريات ، حتى لكأنك معه تشاهد وتستمتع وتتأمل ، وتتنقل بين جلال الماضى وجمال الحاضر : ويرتفع نفس الكاتب فى بعض مواطن الجمال الطبيعى ، إلى أسلوب تحار فى تحديده : أهو نثر شاعرى ، أم شعر فى قالب منثور ؟!

سادتى :

تحفل العشرون سنة الأخيرة من حياة تيمور ، بأعمال أدبية متنوعة ، تبدو عليها سمات العبقرية الفنية الناضجة والأستاذية النقدية الهادية ، والخبرة اللغوية والأدبية الراشدة ، والتحليل النفسى العميق ، والتصوير الكاشف لبعض مشكلات المجتمع المعاصر ؛

ومن هذه الأعمال روايته القصصية « إلى اللقاء أيها الحب » يعرض فيها مشكلات فتاة العصر الجديد ، فيما تعانى من اضطراب فى حياتها العاطفية ، وفيما تتعرض له فى حياتها العامة ، وعملها فى مختلف الأوساط ، من شبه ومغريات ، وألوان من الصراع النفسى . تسير نشأة الفتاة فى أسرتها فى جو متناقض يتنازعه صوتان : صوت التطور ومسايرة العصر فى شخص عمتها « تفيدة » المثقفة الذكية ، التى تعطف على الفتاة وتتفهم مشكلاتها ، والتى كانت لقاءات الفتاة معها متعة أى متعة ، حيث تقضيان الوقت فى مفاكهة ومطالعة وحوار ، فإذا صمتتا كان صمتهما إصغاء إلى أقراص الحاكى ، تطرب السمع بأنغام الموسيقى وألحان الغناء :

والصوت الآخر صوت التقاليد ، ممثلا فى شخص أمها القليلة الحظ من الثقافة والذكاء ، والتى تريد لابنتها أن تسلك مسلكها هى فى الحياة : وتصر على أن تستبقى لنفسها حياة السُّراة المترفين ، على الرغم مما وصلت إليه الأسرة من ضيق وإفلاس ؛

تنقلت الحياة بالفتاة فى ميادين عمل مختلفة : مرة أمينة سر لرئيس مكتب شركة تأمين ، ومرة محررة فى القسم الإفرنجى لجريدة « الليالى الملاح » ومنشئة لركن ناجح فيها عنوانه « أحاديث بنت البلد » ، وقد لاقت فى مختلف أعمالها ضروبا من سلوك الرجال نحوها ، وأطماعهم فيها ، ومرت عليها فى مختلف الأوساط نماذج وأشكال من الشباب فى علاقاتهم ، ومناحى تفكيرهم ، ومواقفهم من الحياة ، وأورثتها تجاربها المرة ، شعوراً بالنقمة من هؤلاء المتوقحين الذين يحبون المرأة لقمة سائغة تسد جوعهم الأثيم . ويمسك هيكل القصة علاقة من الحب بدأت تعارفا ووداداً ثم نمت مع الزمن ومن خلال الأحداث حبا فرابطة زواج ؛

وتبدو براعة الكاتب الكبير فى هذه الرواية وفى أخواتها فى تجسيد المعانى والمشاعر ، وفى تسيير الأحداث فى حركة طبيعية ، وفى إدارة الحوار المستمر بين الأفكار وأضدادها ،

وفى إتاحة الفرص للمنافسات والأزمات العاطفية فى تعقدها وانفراجها، ويحس القارئ فى بعض فصول هذه الرواية صدى لبعض اهتمامات الكاتب فى فنه القصصى، كالنصح الذى يوجهه « سعد مدبولى » لصديقته المحررة بأن تقتحم ميدان البيئة الشعبية، وتزور الأحياء الوطنية، وتجوس خلال الأسواق وتتعرف إلى أهل البلد، وتختلط ببنات البلد، لتدرس كيف يحيين، وما مشكلاتهن، إن ذلك ميدان فسيح لو طرقته لتفتحت لها دنيا جديدة زاخرة، ولكان ذلك ينبوع إلهام لفن صادق ينبض بالحياة. ويفسح تيمور فى هذه الرواية مكانا للمحات وايحاءات ذكية، منها طرفة فى شكل مقطوعة من الشعر الحديث، يضعها على لسان فتاة شاعرة، فى عامها الرابع عشر تسمى نفسها «شاعرة المذهب الوجودى ومافوق الواقعى»، ويهيىء لها أن تلقيها فى حفل فى « كازين الصقر الذهبى »، أقيم لانتخاب ملكة عارضات الأزياء، ويصفق الجميع المحيطون بالفتاة، ويرتفع التهامس بينهم يتواصفون نضارة الفتاة، وما تمتاز به من رشاقة الحركة، وخفة الروح، ولكنهم مروا بقصيدتها مرور الكرام، فلم يذكروها بخير أو بشر.

ومن إيحاءاته الكاريكاتورية صورة يرسمها على لسان بطلة الرواية، لموقف مدير تحرير الجريدة، وهى عنده تعرض عليه بعض الأوراق، وكان يتودد إليها ويلوّح لها برغبته فى الزواج منها؛ تدخل عليهما فتاة أمريكية فاتنة الملامح غالية فى زينتها وزخرفها. كأنها دمية من دمى المسارح تقدم نفسها باسم « مس ميلودى » مبعوثة جمعية الصحافة الأمريكية الحرة لدراسة مشكلات الشرق الأوسط! ويأنس مدير التحرير بالحديث إلى الزائرة الجذابة المرحة، وترتفع الكلفة، ويظل يتفرس فيها، فينضرج وجهه، وتجحظ عيناه من محجريها جحوظاً عجيبا لم تعهده أمينة السر من قبل، حتى خشيت عليها أن يعروهما انفجار، وتنهض مستأذنة فى الانصراف لتخلى الجو لصاحب الجريدة ومبعوثة الصحافة الأمريكية يتبادلان الحديث فى حرية وطمأنينة، ويتدارسان مشكلات الشرق الأوسط فى جو هادئ!

ومن هذا الصنف من قصص تيمور مسرحيةٌ اجتماعية بالفصحى والعامية، عنوانها: « كذب فى كذب»، وأشخاصها يمثلون نماذج من السلوك القائم على الكذب والخداع، ومن الطريف أن تيمورا يطور أحداث المسرحية، ويحرك أشخاصها فى براعة فائقة، تقود البطل والبطلة فى النهاية إلى مرفأ الصدق الأمين، بعد أن ظل كلاهما يتغفل صاحبه، ويحاول إنقاذ نفسه بالزواج من الآخر. وتلك ظاهرة جديرة بالنظر فى موقف « تيمور » فى قصصه من الضعف الإنسانى.

ومن بين آثار فقيدنا فى خلال تلك السنوات العشرين الأخيرة مجموعات من الأقاصيص منها « ثائرون» (كتاب الهلال ١٩٥٥ عدد ٤٦)

و « ودنيا جديدة » (١٩٥٧) ، « وانتصار الحياة وقصص أخرى»(١٩٦٣) و « أنا القاتل وقصص أخرى » (١٩٦٩) و « أبوعوف وقصص أخرى » (١٩٦٩). وكل قصة فى هذه المجموعات تمذاق ، وبمشكلة معينة تعرضها ، أو خيال تجسّده، أو عقدة باطنة تبرزها إلى عالم الوعى والشعور .

ويقدم المؤلف لمجموعة «ثائرون» بمقدمة يشير فيها إلى مادار بين طائفة من الكتاب من مساجلات حول الأدب . وهل هو تعبير عن النفس فى محيطها الخاص ، أو هو تعبير عن الحياة فى محيطها العام؟ وفى رأيه أن الأدب فى ظاهره غاية ، وفى جوهره وسيلة : هو غاية، لأن الأديب الفنان — فى أغلب حالاته — يعبّر عن حياة تعتاج فى نفسه لايملك إلا أن يعبر عنها فى صراحة وخلوص ، وهو وسيلة إذا رمى فيه الكاتب — واعيا أوغير واع — إلى إصابة أهداف معينة ، كالتسامى بالحياة الإنسانية إلى آفاق أعمّ خيراً وأكرم مثلا ، وكالعمل لخدمة قضية من قضايا المجتمع ، أو لعلاج مشكلة من مشكلاته . ويشير المؤلف إلى أن القصة الأولى من مجموعة«ثائرون» (منها أخذت المجموعة عنوانها) « تصور عصراً من أخطر عصور تاريخنا الحديث ، عصر ما قبل الثورة، وهى تدور حول فئة من الشباب الحائر ، يحيون فى عهد فساد وانحلال ، وبين جنوبهم روح الثورة، حتى يتلقّوا ذلك الضوء الوهاج، يهدى لإقامة صرح الوطن الجديد . »

ومن القصص الممتعة فى المجموعات التى أشرنا إليها : قصة«المستعين بالله الكابتن هاردى» وقصة «انتصار الحياة » وقصة «الوطواط»، و « حكاية أبوعوف » .

و«لتيمور» قصة ذات جو روحى نشرت منذ أربع سنوات ، عنوانها « معبود من طين » وهى تستمد إلهامها من الحياة الدينية فى مصر القديمة ، وما كان للكهنة بها من سلطان ، وما تتطلبه العقائد والأديان من جهاد فى سبيلها، وما تحتاجه النفس الإنسانية من ترويض وتهذيب ، ومن ابتهال إلى الإله الحق ، تستلهم منه طمأنينة اليقين . لتقاوم روح الشر التى تقبع جذورها فى قرارة الكيان البشرى .

وإذا انتقلنا من وادى القصص إلى وادى المسرحيات التاريخية ، وجدنا لتيمور طائفة منها ، تمثل اتجاها فنيا فى عرض أشخاص التاريخ عرضاً أدبيا، يعنى بما وراء الأحداث وأنماط السلوك من عوامل نفسية وبواعث لاشعورية، منها : «صقر قريش» (١٩٥٦)، و« ابن جلا » ، « وطارق الأندلسى » ، التى نشرت فى العام الحاضر (١٩٧٣) .

وفى كل هذه المسرحيات يتجلى نجاح تيمور فى نقل القارئ إلى العصر الذى عاش فيه بطل المسرحية ، بأشخاصه وأحداثه ولغته ، وبراعته ، فى إعطاء كل شخصية فى المسرحية حقّها من التحديد والتقويم، حتى لتتألف منها جميعا قطعة حية صادقة ، من حياة مجتمعها الذى عاشت فيه .

وبعد فقد شغلنا فى هذه الكلمة حتى الآن بالجانب القصصى والمسرحى ، وبأدب الرحلات فى عبقرية أديبنا الكبير . ولكنّ لتيمور منجزات أخرى لها شأنها ، ولها حسابها فى تقدير عظمة هذا الكاتب الرائد .

لقد شعر «تيمور» منذ أن اكتمل فنّه ، ونضجت تجاربه ، وذاعت قصصه ، فى مختلف الآفاق الأدبية ، أن عليه واجباً من التعريف والتقديم والنقد البناء لأعمال زملائه ومريديه من كتّاب القصة ، ومن الدرس والبحث النظرى ، المستنير بالخبرة العملية فى فن القصص وتطوره ، وخواصه ، وأصول نقده ، وفى الأدب ومذاهبه ، وصلته بالحياة. كما كان عليه — وهو المجمعى اللاّمع — أن يقوم لعضوية المجمع بحقها ، فيبحث ويحاضر فى فنون الأدب ، وفى اللغة ومشكلاتها ، والكتابة العربية وإصلاحها ، وألفاظ الحياة اليومية وتنميتها ؛ ولأعماله فى كل هذه النواحى حظها الوافر من الإجادة ونصيبها من التقدير .

فمن جهوده فى هذه الميادين كتاب بعنوان : « مناجيات للكتب والكتاب » ، بناه على أقسام أربعة : الأول مع القصاص العرب ، من أصحاب القصص المطولة ، وأصحاب القصص القصيرة ؛ والثانى مع القصاص غير العرب ؛ والثالث مع الشعراء ؛ والرابع مع المؤلفين ؛ وفى هذه الأقسام نلتقى بتقديم وتحليل واضح الفكرة والاتجاه لمجموعة من الأعمال الأدبية لبعض كتابنا وشعرائنا العرب : مثل يحيى حقى ، وفتحى رضوان ، وثروت أباظة ، وعبد الحليم عبد الله ، وبشارة الخورى كما نلتقى بتعريف بترجمات عربية لبعض أعمال كتّاب غير عرب ، مثل : « مارك توين » « وهنريك إبسن » ، « ومارغريت ميتشل » :

وفى بعض فصول هذا الكتاب يكشف لنا تيمور عن موقفه من النقد ، وعن العناصر الأساسية التى تدخل فى تقديره الفنى للأعمال القصصية ، وهو يقرر أنه لم يزاول النقد فيما سلف من أيامه إلا فى الندرة ، إذ كانت نفسه تعزف عنه ، وأنه رضى زمنا بموقف المنقود لا الناقد ؛ ولكنه عدل أخيرا عن هذا العزوف ، ورحّب بما طلب إليه من تناول بعض الأعمال القصصية بالحديث ، لا ناقدا بالمعنى الدقيق — كما يقول — ولكن قارئا يتحدث عما قرأ حديثا يعبر به عن إحساسه وحبه فيما يصنع أن يدعى لنفسه الصدق فيما يحس ، والإخلاص فيما يقول :

وتيمور فى هذا الكتاب ناقد معلّم ، سهل التناول ، سمح التوجيه ، معنى بالجوهر ، عميق فى تحليله وبخاصة حين يكون العمل الذى يعرضه عميق الأبعاد فى فكرته وفى بنائه وفى عرضه للترجمة العربية لقصة « آدم وحواء » ، من تأليف الكاتب الأمريكى « مارك توين » مثل مما نقول ؛ فنى بدء حديثه يثير أعمق الأسئلة عن ألغاز الوجود ، ويشير إلى أن أهل الفكر هم رواد البشرية

فى البحث عن ذلك المجهول ، وأن قصة « آدم وحواء » ظلت الهدف المنصوب لأولئك المفكرين فيما يرتادون ، وأن أظهر جوانبها اثنان :

الأول : خلق حواء من ضلع آدم — فهذه الصورة تختزل لنا فلسفة الرجل والمرأة على وجه البسيطة منذ الأزل إلى الأبد ، والآخر خطيئة آدم وحواء .

وفى النظر إلى هذه الخطيئة يستجمع « تيمور » كل شجاعته ليقول :

وإنى لأجرؤ فأزعم أنها خطيئة ملائكية مقدسة . . . . خطيئة قدرها الله لحكمة تجمع بين السموّ وبعد الغور ، وماهى إلا حجر الأساس فى عمران الوجود المعدود ، والدعامة الكبرى للكيان الاجتماعىّ الرفيع ، وبفضل تلك الخطيئة ظفرت الدنيا من الجنة بتلك البذرة الحية التى أثبتت على وجه الأرض شجرة الإنسان . . . . ثم يستمر قليلا ليزيد ذلك الرأى توضيحا .

وله فى الحديث عن قصة «ذهب مع الريح» للكاتبة الأمريكية « مارجريت ميتشل » تحليل غاية فى الدقة والعمق الفنى :

وهناك لونٌ آخرُ من إنتاج تيمور الأدبى ، قريب مما عرضنا له فى كتابه «مناجياتٌ للكتب والكتاب » ، ذلك هو كتابه : « ملامح وغضون ، صور خاطفة لشخصيات لامعة » ، ويتألف ذلك الكتاب من لقطات تصويرية بارعة ، لبعض الشخصيات الأدبية والمجمعية ، والفنية المعاصرة ؛ من بينها لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، وطه حسين ، وهيكل ، ومنصور فهمى ، وأحمد أمين ، واسماعيل تيمور ، وفكرى أباظة ، وأنطون الجميل ، والشيخ أبو العيون ، وزكى طليمات ، ونجيب الريحانى . . وغيرهم .

ووجه البراعة فى تلك اللقطات أو الصور الوصفية أن الكاتب الفنان ، ينوع أسلوبه فيها تنويه ماهرا ، وكأنما يختار — من كل شخصية يصورُها — زاوية معينة هى أبرز الزوايا فيها ، يستعين بها على تحديد الأسلوب الذى سيصطنعه فى التصوير . ومن أكثر هذه الصور إمتاعا — فى نظرى — صور : « لطفى السيد » « وعبدالعزيز فهمى » « وأحمد أمين » « والشيخ أبو العيون » ؛ ويبدو أن تيموراً - رحمه الله — كان يرضى هوايته فى الوصف التصويرى ، حتى ولو على حساب شقيقه الأكبر «إسماعيل» الأمين الأول فى القصر ، فقد رسم صورة سريعة له استجابة لمن طلب منه ذلك ، وقدمها للقراء — كما يقول — على حقيقتها ، وهو موقن بأن الحساب عليها سيكون بسببها غير يسير ، على أنه فوّض أمره إلى الله : . ومن بدائع تيمور فى هذه اللقطات أنه يعمد أحيانا إلى أن يجمع لك صديقين ملازمين فى لقطة واحدة ، فيقول — مثلا :

[هما اثنان :

أحدهما : سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ، تلتمع

عيناه حزما واعتزاما، ويقتلع خطاه فى مسيره اقتلاعا ، وبجانبه شخص متطامن ، ضئيل الظل، قريب بعضه من بعض ، تملأمنه عينيك فى لحظة ، ينقل خطاه كما يتواثب القطا ، ويقلب فيما حوله نظرة يقظى ، تسبر الغور، وتخترق الحجب .

فإذا راعك مرآهما جنبا إلى جنب فى الطريق، فأقسم — غير حانث — أنك ترى العقاد والمازنى ، ترى ذينك الصاحبين ، اللذين ترافقا فى دنيا الأدب وفى عالم الثقافة منذ عهد بعيد . . »

وقد عاد كاتبنا الكبير إلى مثل هذه الصور الوصفية الثنائية فى مقالات نشرت فى الصحف فى السنتين الأخيرتين : منها واحدة بعنوان : « بين شوقى وعزيز » وأخرى بعنوان : «بين الأديب المغامر والأديب العليل» وأشار فى هذا المقال الثانى إلى أنه أخذ — منذ شهور — يعد أوراقه لهذه الصور الوصفية التى يجمع فى كل منها بين اثنين ، اتسعت بينهما دائرة المشابهات أو المقابلات.

وإذا أردنا استكمال الصورة المجملة التى نحاول أن نرَسمها هنا لجهودِ الراحل الكريم — عرفانا بفضله ، كان علينا أن نشير — فى إيجاز يقتضيه المقام — إلى ألوان أخرى من أعماله الدراسية من كتب ومحاضرات وبحوث فى مختلف ميادين الأدبَ واللغة .

فللفقيد كتاب بعنوان « محاضرات فى القصص فى أدب : العرب ماضيه وحاضره » يضم محاضراته التى ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية (١٩٥٨) . وقد ذهب فيها إلى أن للأمة العربية قصتها منذ أقدم العهود على طرازها الخاص ، وأن أدبنا القصصى الحديث يحمل لقاحه وبذوره من قصصنا العربى القديم، وأنه وليد الصلة بين الشرق والغرب وأن «ألف ليلة وليلة» ليس إلا بعض ماتزخر به كتبنا الثقافية من أقاصيص وأسمار .

وقد كانت معالجة الفقيد للموضوع — على مستوى الدراسات العليا — معالجة تتسم بالعمق والاستقصاء وسعة الأفق .

أما كتابه : «فن القصص — دراسات فى القصة والمسرح — » ويقع فى ثلاثمائة من الصفحات المتوسطة، فقد جمع فيه معظم ما يهم الدارس والقاص من الثقافة الفنية ، موضوعا فى شكل مشكلات تناقش، وظواهر تعلل، وحقائق فى دنيا الفن تبسط وتوضح ، ومقاييس وأصول ، أساسها الخبرةُ والنظرُ السليم ومعايشةُ الأعمال الممتازة لمشاهير الكتاب. وقد أدمج المؤلف فى هذا الكتاب مادة من فصول له نشرت سابقا ؛ ويتألف الكتاب من حوالى خمسة وعشرين قسما ، يرجع معظمها إلى موضوعين رئيسيين : الفن والقصص ، وتحتهما ، تندرج حقيقة الفن وجوهرُه ، والفنُ للحياة، والفنانُ بين الواقع والإلهام ، وشخصية الفنان والفنُ بين المسرح والسينما ، ونشوء القصة وتطورها ، والقصص المصرى الحديث ، والقصص الإنسانى ، وعوامل

النجاح فى تنشئة القاص : : وغيرها من الموضوعات :

و«تيمور» — فى عنايته بالناشىء القاص ، وبالرغم من نفوره من التقعيد والتقنين فى عالم الفن ، يستخلص بعض القواعد والقوانين فى كتابة القصة ، ويعد منها ثمانية يشرحها ويقدمها لا لتكون قواعد جامدة ، ولكن لتكون معالم على الطريق تهدى وتوجه :

ويشارك فقيدنا فى دراسات الأدب العربى الحديث فينشر فى سنة ١٩٧٠ كتاباً فى مائتين من الصفحات المتوسطة بعنوان: « اتجاهات الأدب العربى فى السنين المائة الأخيرة» ، عنى فيه — إلى جانب التاريخ الموجز لأدبنا الحديث — بالترجمة المجملة لنماذج من كتابنا وشعرائنا تمثل نواحى من التطور ، واتجاهات من التفكير من بينها عائشة التيمورية ، وشوقى ، وحافظ ، وتوفيق الحكيم ، وعزيز اظة ، ومحمود طاهر لاشين ، ومحمد السباعى . وأمين الخولى ... وغيرهم :

وقد استمتع المجمع فى مؤتمراته السنوية بالاستماع والمناقشة لطائفة جادة من بحوث تيمور ؛ من بينها فى ميدان الأدب « بحث فى الأدب الشعبى » . و«الفنان بين الواقع والإلهام» ، « ومذهب الأدب الهادف ومكانه من الأدب الواقعى » .

وفى الناحية اللغوية : « لغة المجتمع » و « لغة القصص » و « وحدة الفكر العربى » و« مقومات العروبة »و«سلطان اللغة العربية » و« رأى فى الصراع بين العامية والفصحى »، و« مواليد جديدة فى لغة الحياة العامة » .

و « تيمور» فى بحوثه المجمعية ، وخاصة الأدبية منها — يصدر عن ثقافة فنية وأدبية وشرقية وغربية واسعة ، وقد عددت له فى أحد تلك البحوث (الفنان بين الواقع والإلهام) أربعة عشر اسما من كتاب العربية وشعرائها فى قديمها وحديثها ، وقرابة عشرين اسما من الغرب : بين كاتب وشاعر وموسيقى ورسام ، وكاتبة وممثلة ، وقد جلبها كلها ليوضح بها بعض آراء ودعاوى فى قضية الواقع والإلهام ، محللا عملا لهذا ، مقتبسا رأيا لذلك ، مبرزا المفارقات والموافقات بين حياة الفنان ومجال فنه ، مشيرا إلى أن الفنان قرين الممثل على منصة المسرح : فنه كله فى استطاعته أن يندمج فى الشخصيات التى يتناولها ، مبيناً أن الفنانين يختلفون شكولا وألوانا ، مؤكدا أن العبقرية لا تدع للفنان حداً يقف عنده ، وأنّ أكذب شئ فى الفن هو التحديد ، وأنه لا حجر على العقول والأذهان ولا قانون للميول والاتجاهات ، وفى « صندوق الدنيا» متسع لأشتات المنازع الحافلة بالنقائض والأضداد :

وهناك جانب هام من جهود « تيمور» فى خدمة اللغة العربية ، وفى تحقيق هدف من الأهداف الرئيسية للمجمع هو تنمية اللغة العربية ، وتطويرُها لتفى بمطالب الحضارة فى شتّى مظاهرها وذلك يمثّل المجال الخامس من المجالات الكبرى لمنجزات « تيمور » :

اتخذ « تيمور » من العمل فى هذا الميدان رسالة خصّص لها شطرا كبيرا من جهده ، ووقته فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وكان يحرص على ألا يمرّ مؤتمر سنوى للمجمع دون أن يقدم له حصيلة من ألفاظ الحضارة والحياة العامة ، مما خصّه هو ولجنةُ ألفاظ الحضارة — وكان مقرّرها — ومما استخلصه هو من قديم ما طالع ، أو ما وقع له حديثا فيما قرأ ، أو اقترحه ، أو أجراه فيما كتب ، أو ما رأى تخصيص مدلوله العام أو تعميم مدلوله الخاص .

وكان يصدر فى هذا الجهد عن وجهة من النظر ، تمثل الآن الاتجاه العام للمجتمع فى أمر ألفاظ الحضارة ، عمادُها الشعورُ بضرورة تنقية لغة الحياة فى المجتمعات العربية من العامى والدخيل ، والإيمان بأن لغة الحياة اليومية السليمة لا تفرض على الناس فرضا ، ولكن تؤخذ من أفواههم ، ومألوف كلامهم ، لترد إليهم ولتوضع فى متناولهم مزكّاة من أهل الاختصاص أو مفصّحة إن كانت فى حاجه إلى تفصيح ؛ والواقع يؤيد أن الوعى اللغوى فى الجماهير العربية قد استيقظ منها ونما نموّاً ملحوظا ، وأن حرص الجماهير — معاملاتها وحرفها وصناعاتها على استعمال اللفظ العربى المناسب — فى سهولته ووضوح دلالته وارتياح الذوق العام إليه ، يوشك أن يكون سمةً بارزة فى حياتنا اللغوية الحاضرة .

وقد جمع « تيمور » جملة صالحة من ثمار جهوده فى هذا الميدان ، مما سبق أن قدّمه للمجمع فى مؤتمرات ، ونشر ذلك فى سنة ١٩٦١ فى مصنّف قيّم بعنوان : « معجم الحضارة » يضم نحو ألف من ألفاظ الحياة العامة ، بُوّبت وعلّق عليها واقترح لبعضها بدائل فيها مزية من إفصاح ، أو بنية سليمة .

سادتى :

إن فقيدنا « محمود تيمور » — كما تشهد آثاره وسيرة حياته — كان كاتبا رائدا فى فن القصة ، ومجمعيا مخلصا لرسالة المجمع ، ومواطناً معتزّاً بوطنه ، وأديباً باحثا حفياً بالفصحى وآدابها ، وإنسانا سمح الوداد ، كريم الشمائل ، يألف ويُؤلف .

وقد ظفر فى حياته بالتكريم الجدير به ، أحبه الناس ، وقدرته الدولة فمنحته جوائزها ، وأوسمتها ، وأحلّه المجمع منه فى السويداء ، وترجمت طائفة من قصصه إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية والآسيوية ، وعرف فيه كثير من شباب الكتاب موجّها ومعلّما ، ونشرت عن أدبه وسيرته دراسات جادّة .

وإن من حق هذا الرائد علينا — وقد فارق دنيانا إلى جوار ربه بعد أن أدى رسالته — أن نضع أعماله موضع البحث والدرس العميق ، وأن نجلو من سيرته ومن شخصيته مثالا به يقتدى ، ومناراً به يهتدى ، والله سبحانه يرحمنا وإياه ، ويجزيه عنا خير الجزاء .

●●● قصـــيدة الدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش :

نجم هوى من قمة الجـــــوزاء
بالرغم مـــن عليـائه وضياء
إن النجوم إذا علت وتلألأت
مهما تـــكن ، فمصيرهـــا لفناء
لا تفرحن إذا أتتاك ، بنعمة
أو تحزنن على فوات عطاء
إن الذين تغرهم دنياهمـو
يستبدلون النــــار بالرمضـــاء
لا تقبلن على الحياة تظنهـا
«ريّــا » فليست ، كالسراب ، بماء
رفع الأمانة بالوفاة وحملها
عند الوليد بضحكة وبكاء
حدباء ، هذى سوقنا ومصيرنا
للنار أو لمثوبة الشهداء
قد تحملين المؤمنين بربهم
والكافرين به بدون رجاء
عاد التراب إلى التراب كأصلة
والروح سر الله فى الأحياء
الجسم يفنى عن قريب بالبـــلى
والروح تحظى بعده ببقاء
إن الحياة مفازة تجتازها
أرواح فى حجب من الأشلاء
هذا الرداء مطية منقادة
للروح نرسلها بدون عنـــــاء

إن أحسنت فلنفسها قـــد أحسنت
حسناتها أو ظلمها بجـــــــزاء
حدباء ، إنك تحملين كبيرنـــا
فى حلبـة الأدبـــاء والنبـــلاء
لـــو تعرفين مقامه وخـــلاقه
لنثرت دراً ناصع الأضواء
يا تاركا دار البلاء مزوّدا
بالصالحات مشيعا بدعاء
من مثله قص الحديث رواية
وفكاهة فى حكمة الحكمـــــــاء
أو مثله ملك البيان وسحره .
ببلاغة عزت على الفصحـــــاء
كل الشمائل فيه دون تكـــبّر
إن التواضع شيمة العظـــــماء
لو عد أهل الفضل كان إمامهم
فى عِفّة وكـرامة وإباء
من جاء يطلب حاجة من جوده
أعطاه ما فى بيته بســــــخاء
ذرية من بعضها بعض لهـــا
فضل على الكتاب والقراء
من بعد « أحمد » عقّبت « محمد »
وتلاه « محمود » مـــن الأبنـــــاء
والشعر كان نصيب «عائشة» التى
جاءت بخير قصائد الشعراء
«تيمور» هذا الاسم يبقى درّة
بقلائد الشعراء والأدبـــــاء

●●● كلمة شكر الأسرة للأستاذ أحمد فؤاد تيمور :

سيدى كبير الخالدين

سادتى ، أيها الخالدون

سيداتى ، آنساتى ، سادتى

أيحق لمثلى — أيها الخالدون — أن يقف على منبر مجمعكم الموقر ، منبر المدافعين عن الفصحى وحماتها ، يسمع صوته ، فيقوم بينكم متحدثا فى بلاغة وإفصاح ، وأنتم هنا أعلام البلاغة والإفصاح بيد أن تفضلكم بإقامة هذا الحفل لذكرى أحدكم الذى شرفنى القدر بأن أنتمى إلى الأرومة التى أنبتته ، هذا الظرف الفاجع هو الذى حدا بى ، على الرغم من عجمة لسانى معولا على ما اتصفتم به من رحابة صدر أن أتكلم شاكرا ، باسم أسرة الفقيد العزيز ، ما أديتموه إليه ، على لسان خطباء بررة أجلاء ، من تقدير ووفاء وإخلاص . وليس ذلك بمستغرب على الخالدين ، وهم دون مراء موازين التقدير والوفاء والإخلاص .

أيها الخالد بين الخالدين ، عمى الأعز :

كتب القدر على قلمى منذ عشرين عاما ونيف ، وأنا فى سن الصبا الباكر ، أن نخط بدم لا بمداد كلمات رثاء بمجلة المدرسة تحت صورة تزين الصفحة الأولى من صفحاتها وقد جللها السواد ، لعزيز على كلينا ، فبكيناه معا : أنت كأب ، وأنا كابن عم وزميل وصديق .

أكنت له عاطفة الأبوة وفجيعتها ، فكان من وحيه « أبو الهول يطير » وغيره من فن وأدب وشاطرته أنا على محبة وود زمالة السن ورفقة الدرس ، وصداقة العمر .

ويقف بى قلمى اليوم حائرا فى عجزه وأنت ما أنت فى مجمع الخالدين ، أن يمضى بى قدما فأحس به يتثاقل على أناملى لا يلين ولا يبين .

أستشعر وأنا أخط تلك الكلمات العاجزات القصار ، بأن من سبقوك إلى عالم الخلود فى برزخ الأرواح العلوى ، ليهيمون وجدا بلقائك من أب وأم وشقيقين ، وعلى رأسهم ابنك الأعز باسطا لك ذراعيه مرحبا بك فتذوب روحا كما فى معانقة جياشة ، فتقضى الوقت معه تسمعه كما أسمعته وهو طفل يرقد بين حضنيك تروى له اليوم ما رويت له بالأمس من أقاصيص وحكايات ، فتهدأ نفسه وينام متشبثا بك مطمئن القلب ، هانىء الوجدان .

وإنى آخذ بين جمع المحبين شقيق الحبيب الذى سبقك بالرحيل عنا منذ شهور تقضت ، ولا أدرى كيف تقضت . متلهفا لسماع أحاديثك عن الأحياء من ابن مكلوم وإخوة لم يجف لفقده فى مآقيهم الدمع بعد . وأراك تلتفت إليه ، فتحدب عليه حدبك

علينا فى دنيا الأرض ، فتأخذ فى روايتك تصوغ له وللمنصتين لك فى عالم الروح ما احتزنته لهذا الاجتماع من حديث وأقاصيص تهدى إليهم فى صياغتك الرشيقة ما أهديته إلى الأحياء ، باقة من فنك الأخاذ ، تعشقته أسماع الراحلين والأحياء ، وإن طالت بنا المسافات .. وإن ترسل علينا صوتك الهادئ الهاتف من علياء السماء .

هنيئالك ، يوم زاملت الخالدين ، وهنيئا لهم ما يسود مجمعهم الموقر من ترابط فى إخاء وصفاء ، وإن اختلفت حول الكلمة المعروضة عليهم لإقرارها الآراء ، واحتدم من أجلها الجدل ، واشتد عليها النقاش :

وحمداً لكم ، أيها الخالدون ، ماتضمرون من تعاطف مكين ، وما تظهرون من من تآزر وثيق ، فى سبيل نصرة اللغة ، وتعريب العلم ، وتزكية الأدب .

وسلام عليكم ، ورحمة الله ، ، ،

اقام المجمع حفل تأبين لرئيسه المرحوم الدكتور طه حسين ، فى الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م) بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع ، وفيما يلى ما القى فى الحفل :

كلمة الأستاذ زكى المهندس

نائب رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم :

الدكتور طه حسين

سيداتى وسادتى :

ما أشق على الإنسان أن يتحدث عن طه حسين ! !

إن مجال القول فيه مجال رحب فسيح لايستطيع أحد أن يبلغ مداه .

إن كل ما قيل عن طه حسين وكل ما كتب عن طه حسين لايعبر إلا عن بعض طه حسين ذلك أن طه حسين لم يكن كأحد من الناس ، إنه كان تاريخ العصر ، ورمز النهضة ، إنه خلاصة وركزة تباورت فيها كل معالم النهضة الأدبية والفكرية الحديثة .

لهذا كانت حياته أشبه ببحر عظيم . من أى النواحى أتيته لاتستطيع أن تدرك عمقه ، ولا تستطيع أن تحصى ماأودعه الله فيه من خير ؛ ولهذا أيضا كان كل من يتصدى للحديث عن هذه الحياة الخصبة العملاقة يجد نفسه فى حيرة فلا يدرى ماذا يأخذ منها وماذا يدع ؟ ولايدرى عن أى جانب من جوانبها يتحدث ؟ فهل يتحدث الإنسان عن طه حسين الأديب ؟ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بإنتاجه الخصب الممتع فى الأدب ، وفى النقد ، وفى التاريخ ، وفى التربية ، وفى القصة وفى مشاكل الناس ، وفى المعذبين فى الأرض ؛

والذى استطاع أن يطور من مناهج البحث الأدبى ، وأن يغير من مفاهيمها وأن يضع بين أيدينا لدراسة الأدب نهجا علميا يقوم على البحث والدرس والنقد والتحليل ، حتى نأخذ ونرد الفاسد ، ونصحح الخاطئ ؛

هل يتحدث الإنسان عن هذا الذى عنى بالتراث الأدبى القديم عناية فائقة ، ولكنه لم

يقف به عند تلك المسلمات القديمة التقليدية الموروثة .

ولم يقف عند مضارب الخيام والأطلال البالية وحداة العيس فى الصحراء ، ولكنه استمد منه ومن أدب الإغريق ومن أدب اللاتين القدماء ومن الأدب الغربى الحديث .

استمد من هذه كلها مادة بنى بها قصورا أدبية عربية جديدة ، بل بنى ناطحات سحاب .

لقد كان الفقيد فى عمله هذا أشبه بالنحلة تقع على مختلف الزهور تمتص رحيقها ثم تخرجه للناس عسلا شهياً .

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين ، الفنان المبدع الذى انفرد بأسلوب من الكتابة لم يسبق إليه ولم يلحق فيه. أسلوب طبيعى يمتاز بالحرية والانطلاق والإشراق ، أسلوب تألفه كل أذن وترتاح إليه كل نفس. لقد كانت تأتيه الفكرة فيتناولها بأسلوب الفنان الأصيل ثم يعرضها ، وفى موجات متتابعة وصور متلاحقة ينبعث بعضها من بعض ، ويتولد آخرها من أولها ، وقد عيب عليه فى هذا شىء من التكرار ، ولكنه فى الواقع تكرار محبب إلى النفس ، يراد به تعميق الإحساس بالفكرة التى يتحدث عنها. وأسلوب طه حسين فى الكتابة لا يكاد يختلف عن أسلوبه فى الحديث فهو يتحدث إليك وكأنك تقرأ له ، وأنت تقرأ له وكأنه يتحدث إليك.

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين الأستاذ والمعلم الذى تخرج على يديه أجيال متعاقبة من الكتاب والأدباء الذين نعتز اليوم بهم وبأدبهم ؟

أذكر أن بعض الكتاب شبه طه حسين بين تلاميذه بشجرة الزيتون تكسب التربة التى تزرع فيها قوة الخصب والنماء ، حتى لتزى كل نبات حولها أخضر مونعا .

وكذلك كان طه حسين بين تلاميذه ، كان يحنو عليهم ، ويتابع حياتهم فى الجامعة وخارج الجامعة ، ويجتذبهم إليه بشخصيته القوية ، وبأسلوبه الساحر الفاتن .

هل يتحدث الإنسان عن صاحب الأيام الذى وضع بين أيدينا ترجمة ذاتية تصور لنا كيف تطورت حياته الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وكيف استطاع أن يشق طريقه بين الظلمات إلى العظمة والمجد . إن أيام طه حسين يجب أن تكون مثلا للشباب تلهمه القوة والأمل .

وبعد فهذه أيتها السيدات والسادة لمحات خاطفة عن تلك الحياة الحرة المنتجة الخصبة حسبى هنا أن أقول فى رثاء طه حسين ما قاله شاعرنا القديم فى رثاء قيس بن عاصم :

فما كان قيس موته موت واحد
ولكنه بنيان قوم تهدمـــــــا

سيداتى ، سادتى :

إن تاريخ عظماء الرجال يثبت لنا أن كل عظيم كان وراءه امرأة عظيمة ، والسيدة الجليلة (سوزان) حرم الفقيد ، قد ضربت لهذا مثلا آخر ، وأضافت إليه عبرة أخرى ، وإذا كانت مصر مدينة بنهضتها الأدبية والفكرية لجهود طه حسين ، فإن مصر لن تنسى كذلك جهود السيدة (سوزان) فى صنع طه حسين .

ألهمها الله الصبر ، ورحم الفقيد العظيم وطيب ثراه ، وجعل الجنة مستقره ومأواه .

والسلام عليكم ورحمة الله .

●●● كلمة الدكتور ابراهيم مدكور :

الأمين العام للمجمع

((طه حسين مكافحا))

سيداتى وسادتى :

كان صديقنا السيد الدكتور الزيات ، مستشار السيد رئيس الجمهورية ، حريصاً على أن يشترك معنا فى هذا التأبين ، وكانت له كلمة ، ولكن مهمة مفاجئة اضطرته للسفر إلى الخارج . وهو يبعث بصادق أسفه لحرمانه من الاشتراك معنا ، وينقل إلينا تحية زوجة الفقيد وابنته وولده وشكرهم الخالص ودعواتهم للمجمع والمجمعيين بالتوفيق والسداد فى كل ما اضطلع الفقيد الكريم به من حرص على اللغة وتعهد لها :

* * *

هناك أناس خلقوا للكفاح ، يستعذبونه ويستطيبون كل شئ فى سبيله . يرون فيه أداء للواجب وإرضاء للضمير ، وسبيلا ناجعا للنهوض والإصلاح ، ويضربون فيه مثلا للجرأة والشجاعة : « وطه حسين » مكافح مناضل ، وتلك ظاهرة ملحوظة فى حياته كلها ، كافح فى صباه وشبابه ، كما كافح فى كهولته وشيخوخته ، وبرغم مرضه فى سنيه الأخيرة بقى قوله وفكره يحملان شارة الكفاح والنضال . كافح وناضل فى ميدان العلم والتعليم ، فى ميدان الأدب واللغة ، فى ميدان الوطنية والسياسة . وكلفه كفاحه ما كلفه من عنت ومشقة ، وجلب عليه ماجلب من خصومة وعداء ، ولا يخلو الكفاح أحيانا من غلو وشطط : وكان يرى أن الرجل ليس رجلا إذا استقامت له الحياة كلها ، فلم يكن له فيها خصم ، إنما الرجل كل الرجل هو الذى تستقيم له حياته كما يريد هو أن تكون وكما يريد ضميره القوى النقى أن تكون ، وكما يريد عقله الذكي أن تكون .

ويطول بنا الحديث إن وقفنا عند جوانب كفاحه المختلفة ، ويكفى أن نعرض نماذج منها . كافح فى صباه بعد أن فقد بصره ، وكأنما شاء أن يعوض ماحرمته الطبيعة منه ، فحفظ القرآن كله ولما يبلغ العاشرة .واستمر يكافح ليتزود عاميا وثقافيا بأكمل زاد ، ويتسلح بأجود الأسلحة ، فالتحق بالأزهر وهوفى حدود الثالثة عشرة من عمره وتتلمذ على كبار الشيوخ حين ذاك ، أمثال الشيخ بخيت ، ومحمد العدوى ، ومصطفى المراغى ، وسيد المرصفى ،ولم يفته أن يستمع إلى آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام فى الرواق العباسى .وكان يتابع دروسه صباحا ومساء ، لا يكل عملا ولايدخروسعا ، وقد عرف بين شيوخه بالجد والتحصيل ،وقوة الحجة والحذق فى الحوار والجدل ،وانتهى به جدله أن طرده شيخ الأزهر مع زميلين له ، ولم يعد إلى درسه إلا بعد أن شفع له لطفى السيد الذى رحب به فى « الجريدة » وشجعه ،وأخذ على عاتقه رعايته وتوجيهه .

وما أن فتحت الجامعة المصرية القديمة حتى طرق بابها ، وتابع دروس كبار أساتذتها ، فاستمع لأحمد زكى (باشا) ،وأحمد كمال (باشا) ، وإسماعيل رأفت (بك) ، ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى بين المصريين ، ولجويدى وليتمان ،وسانتلانا من الأوربيين : ولم ينقطع مع هذا عن الدروس الأزهرية ، وكان يستصحب أحيانا أستاذه وصديقه «سانتلانا» إلى درس الشيخ سليم البشرى فى التفسير ، ودفعه ولوعه بالجدل إلى أن يناقش بحضور الضيف الأجنبى الشيخ البشرى فى مشكلة الجبر والاختيار ،وكان له أيضاحوار وجدل مع بعض أساتذته فى الجامعة ، وأثار غضب الشيخ محمد المهدى الذى رفع أمره إلى مجلس الجامعة ،وطالب بفصله . ودفعته دراسته الجامعية إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ولقى فيهاعنتا كبيرا ،ولكنه لم يجوّدها إلا أثناء مقامه فى فرنسا . وختم مطافه فى هذه الجامعة بتقديم رسالة « فى ذكرى أبى العلاء » للحصول على الدكتوراه ، ونالها بتقدير «جيداجدا» ،وكان يمكن أن يحصل على تقدير « فائق » لولا حفيظة الشيخ المهدى الذى لم ينس حملات تلميذه السابقة .وما إن نشرت هذه الرسالة حتى أثارت ضجة ، واتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ، ووُجّه سؤال إلى الجمعية التشريعية يطالب بحرمانه من حقوقه الجامعية ولو لم يتدخل سعد زغلول ، وكان رئيس الجمعية التشريعية حين ذاك ، لقضى على مستقبل الشاب النابه الجرىء .

ولم يقف طه حسين عندهذه الغاية ، بل تابع الكفاح ، وواصل الدرس والبحث . فأوفدته جامعته إلى فرنسا فى أواخر عام ١٩١٤ تحت نيران الحرب العالمية الأولى ، وقضى فى مونبلييه نحو عام ، ثم اضطر للعودة إلى القاهرة بسبب ضائقة مالية ألمت بالجامعة الموفدة . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا بعد شهرين ،واستأنف درسه هذه المرة فى باريس نفسها ، واتصل بكبار أساتذة

« السربون » فى الاجتماع والتاريخ ، أمثال « دوركايم » ، «وليفى بريل» « وسينيوبوس». وأولع بالحضارة اليونانية والرومانية ، وبدأ فى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وتمكن من الأخيرة بوجه خاص ، واستطاع أن يدرك فى يسر نصوصها ويستخرج منها مدلولاتها . وتزوّد بزاد وفير من الأدب الفرنسى. وفى عامين اثنين حصل على الليسانس فى الآداب ، وبعد ذلك بنحو عام أو يزيد تقدم برسالة فى « ابن خلدون » للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس : فتوافر له بذلك درجتان فى الدكتوراه ، إحداهما من القاهرة ، والأخرى من باريس، ولم يبق إلا أن يعود إلى وطنه ليؤدى رسالته :

وقد عاد إلى مصر فى أواخر عام ١٩١٩ وسنه ثلاثون سنة ، بعد أن اكتمل نضجه العلمى والفكرى ، وبدأ نضالا طويلا واسع المدى ، متعدد الألوان ، عمّر نحو أربعين سنة ، وعوّل فيه بخاصة على سحر الكلمة ، وسلطان العقل، وبداهة المنطق. كافح داخل الدرس وخارجه ، فلم يستهن بدرس ألقاه ، بل كان يحفل له ما وسعه ، ويعدّه أكمل إعداد ، ولا أظنه ألقى درسا يوما دون إعداد : ولم يتهاون مع واحد من تلاميذه ، أخذهم جميعا بالجد ، وحاسبهم على أعمالهم فى غير هوادة وتخرّج منهم على يديه جيل اعتمدت عليه حياتنا الجامعية والثقافية . وكان لمحاضراته العامة جمهور كبير يرقبها ، ويقبل عليها فى حماس . أخذ مستمعوه بأسلوبه ، وفتنوا بنعمة صوته، وحاكوه فى كثير من التعبيرات ، وكان لهذه المحاضرات صدى كبير لدى الخاصة والعامة . وفى عام ١٩٢٦ أخرج كتاب « الشعر الجاهلى» الذى لم يكن شيئا آخر سوى سلسلة من المحاضرات ألقاها بكلية الآداب ، وما أن ظهر هذا الكتاب، حتى أثار حملة شعواء اختلط فيها الأدب بالسياسة ، فعارضه من عارضه على أعمدة الصحف ، ووضعت عدة كتب للرد عليه ومناقضته . وقدم استجواب إلى مجلس النواب يرمى إلى محاكمة مؤلفه وطرده من الجامعة، ولولا معارضة « عدلى يكن » رئيس الوزراء ، وهو من نعرف فى شخصه ومنزلته ، لكان لهذا الاستجواب شأن آخر: ولم تكد تسكن العاصفة فى البرلمان حتى هبت فى النيابة العامة ، فحقق مع المؤلف وبحثت أقواله وآراؤه ، ولا يبدو أنه وجد فيها ما يدينه ، واكتفى بمنع تداول كتابه فى الأسواق . وبرهن طه حسين فى ذلك كله على صلابة ورباطة جأش بالغتين ، وخاض معارك فى جبهات ولم يمسسه منها سوء يذكر ، بيد أنه لم تكد تمر هذه الأزمة حتى تلتها أزمة أخرى فى الجامعة كانت اشد عنفا :

فعورض فى تعيينه عميدا لكلية الآداب وأجل إلى حين ، ويوم أن عين استمسك باستقلال الجامعة ودافع عنه بكل قواه ، ولكن دكتاتورية «إسماعيل صدقى» لم تتردد

فى أن تعدو على هذا الاستقلال ، فأبعدته عن عمله ، وأحالته على المعاش :

وكافح طه حسين أيضا فى ميدان الصحافة ، وصلته بها قديمة العهد ، ترجع إلى أوائل هذا القرن ، نُشِّئ فيها على أيدى رائدين عظيمين هما : عبد العزيز جاويش ولطفى السيد ، فجمع بين التطرف والاعتدال ، ولعله كان إلى التطرف أميل . وقد كتب أول ما كتب فى « مجلة الهداية » بتوجيه من « عبد العزيز جاويش» الذى وكل إليه أمرها . وشجعه على ماتتوق إليه نفسه من نقد جرئ وجدل عنيف. واضطر رائده هذا إلى أن يهجر مصر على غير انتظار ، فلجأ إلى رائده الثانى وأفاد منه كثيراً. والحق أن الجريدة على قصر عمرها كانت مدرسة كبرى تخرج فيها طائفة من أعلام الفكر والقلم ، وكان لها أثر عظيم فى حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية. ونعتقد أنه لم يكشف بعد تماماً عن أثرها فى اللغة وأسلوب الكتابة المعاصر ، فقد أتمت مابدأه « رفاعة الطهطاوى » و « محمد عبده » من التخلص من السجع والجناس والمحسنات اللفظية ، وتخرج فيها طه ، وهيكل ، وعزمى ، ومنصور فهمى ، والزيات ، الذين كانوا قدوة فى الأداء الفنى السائغ السهل .وقد أخذ على طه حسين شئ من التكرار وبالغ فى ذلك خصومه ومنافسوه ، ولوكان فى وسعه أن يكتب لتفادى منه الكثير ، على أن هذه هنة هينة إلى جانب سلاسة أسلوبه وعذوبته ، ولعله تأثر فى هذه السلاسة بشيء من الأدب الفرنسى ، ولكن أسلوبه من أصفى الأساليب العربية المعاصرة ، ولايحمل أى طابع أجنبى ، وهو أقرب ما يكون إلى أسلوب كبار كتاب الصدر الأول ، أمثال « عبد الحميد » ، و« ابن المقفع » ، و « الجاحظ » .

وبعد أن رجع فقيدنا من أوربا عاد إلى شوقه القديم ، واتصل بصحيفة « السياسة » ، وهى إلى حد ما امتداد «للجريدة» وأسرتهما واحدة تقريبا ، وفيها التقى « طه » بزميله القديم « هيكل» ، واشترك معه فى إدارة الصحيفة ، وناب عنه أحيانا فى رياسة تحريرها . وكان له فى « السياسة الأسبوعية» مجال فسيح ، وكم كان قراؤه ينتظرون فى شغف « حديث الأربعاء » الذى فتح أبوابا ثقافية متعددة ، وقاد حركة نقد حية نشيطة ، وكم نود أن نحييها . وإذا كان طه حسين ، قد كتب فى « الجريدة » و«السياسة» هاوياً ، فإنه بعد إحالته على المعاش أصبح محترفا ، وطلب إليه الوفد عام ١٩٣٣ أن يرأس تحرير صحيفة « كوكب الشرق » ، وأصبح يؤيد حزبا سياسيا طالما حاربه فى عنف . غير أن تعاونه مع « حافظ عوض » ، صاحب امتياز هذه الصحيفة لم يدم طويلا واضطر أن ينفصل عنه ، وأن يشترى «صحيفة الوادى » ، وأن يديرها لحسابه الخاص نحو عام ، وكبدته خسائر فادحة . ثم قنع بعد هذا بمواصلة الكتابة للصحف هاوياً مرة أخرى فى بحوث ودراسات أدبية ، وربما كانت له علاقات منتظمة ببعضها « كالجمهورية » و« الأهرام » فى العشرينات الأخيرة .

وكافح طه حسين أخيراً فى ميدان السياسة، وماأقساه من ميدان ! ورحم الله الأستاذ الإمام الذى قال فيه قولته المشهورة ولا أظن أن فقيدنا كان مذهبيا متحزباً تحزب التبعية والانقياد فيما أخذ به من اتجاهات سياسية ، وإنما هى تيارات ، أو بعبارة أدق صداقات جاراها يمينا تارة ، ويساراً تارة أخرى ، وما كان أشد تأثره بهذه الصداقات ، وما كان أسرع استجابته لها . وقد نال من هذه التيارات مانال من صعود وهبوط ، وتقدير واستنكار ، وحظى بالغضب والرضا السامى فى لحظات متباعدة أو متلاحقة . وكان شأنه فى البداية شأن كل مواطن مستنير عاش فى جو الثورةالعرابية ،وأدرك حركة « مصطفى كامل » ، فهو ينكر الاحتلال البريطانى ، ويطالب بالاستقلال :

وفى اتصال فقيدنا « بعبدالعزيز جاويش » و«لطفى السيد » ما اجتذبه نحو السياسة ، كما اجتذبه نحو الصحافة ، على أنا لانلحظ له فى الحقيقة نشاطاً سياسياً واضحاً طوال مرحلة الدراسة والطلب ، لا فى مصر ولا فى فرنسا . ولم يبد هذا النشاط إلا يوم أن انضم إلى صحيفة « السياسة » ، واندمج مع أصدقائه الأحرار الدستوريين ، وحسب معهم . وانتهى به عمله الصحفى إلى الدخول فى مهاترات حزبية ماكان أغناه عنها ، وأثارها شعواء ضد الوفد والوفديين ، ولم يعف سعد زغلول من حملته برغم ما كان له من أياد عليه . ونتساءل هل اشترك فعلا فى التنظيم الداخلى لحزب الأحرار؟ وهل عد من أعضائه ؟ أغلب الظن أنه كان مجرد صديق ومناضل خطير ناصر الحزب مناصرة كبيرة . ولم يختلف عن ذلك كثيرا يوم أن انضم إلى صفوف الوفديين ، وحمل رايتهم ، ودافع عن مواقفهم، وأصبح أحد وزرائهم . وود كثير من أصدقائه أن لو عاش للأدب والثقافة وحدهما ، وقد وصل فيهما إلى القمة ، وأحرز مجدا يزيد على مجد كثير من السياسيين . وودوا بخاصة أن لو لم يغل فى المضمار السياسى ذلك الغلو الذى أساء أحيانا إلى مقامه فى الأدب وبين الأدباء .

وفى عام ١٩٤٠ دخل طه حسين مجمع اللغة العربية فى زمرة كريمة من قادة الفكر والرأى ، نذكر من بينهم « لطفى السيد » و« عبد العزيز فهمى »، « والشيخ المراغى » ، « وهيكل » ، « ومصطفى عبد الرازق » : دخله وقد جاوز الخمسين : وحق له أن يركن إلى شىء من الهدوء والراحة . ولكن أنى له وسجيته الكفاح والنضال : وهكذا نراه يعنى بالتنسيق والتنظيم، ويسهم فى كثير من اللجان . ويحاول جهده أن ينهض بالعربية لتلائم حاجات العلم ومتطلبات الحضارة ، ويدخل مع زملائه فى جدل محكم وحوار ممتع . اشترك على أثر دخوله فى مكتب المجمع الذى عهد إليه بتعديل اللائحة الداخلية ، وكان همه أن يبرز فيها شخصية المجمع ، ويؤكد استقلاله ، ويوفر له وسائل العمل والإنتاج :

وكم طالب بأن تكون له مطبعة خاصة ، واقترح أن تضم إليه مطبعة دار الكتب بقسمها الأدبى ولا يزال المجمع يعانى من شئون الطبع ما يعانى إلى اليوم . وأراد «لمعجم ألفاظ القرآن» أن يقوم على أساس من المنهج التاريخى ، وأن يسلك به ما سلك فى كتب العهد القديم ، وكان له فى ذلك حوار متصل مع الشيخ المراغى : ولا نزال نذكر ما كان بينه وبين زميله « عباس العقاد » من محاورات كانت تبعث فى جلساتنا نشاطا وحيوية ، وإذا حمى وطيسها تدخل فيها « لطفى السيد » فهدأت وسكنت .

وتحمس طه حسين لتيسير النحو تحمسا شديدا ، ورحب بالمشروع الذى بعثت به وزارة المعارف إلى المجمع ، ورغب فى أن يوضع له كتاب يوضحه ويطبقه ، وأعلن أنه مستعد أن يتولى بنفسه وضعه . ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم « فيشر » التاريخى ، اتجه نحو فكرة وضع معجم كبير ، وأبى طه المكافح إلا أن يضطلع بعبء التنفيذ . وهذه مهمة عشت معه فيها ، وزاملته فى تنفيذها . وأشهد أنه بدأ أولا فى رسم منهج هذا المعجم ، وقضى عدة سنوات يتابع إعداد قدر من مواده ، ويراجعها فى أناة وروية . واستطاع أن يخرج منها نموذجا فى نحو ٥٠٠ صفحة ، وقد دفع به المجمع إلى الباحثين والمتخصصين ، راجيا أن يوافوه بما يعن لهم من ملاحظات وتعليقات ، وكان هذا النموذج أساسا سار عليه المجمع فى إخراج معجمه الكبير ؟ تلك أمثلة من جهوده المتصلة فى مجمع الخالدين ، وقد كنا نحس جميعا أنه بماضيه الحافل ركن ركين من أركان المجمع ، وأن رسالته وثيقة الصلة برسالته . ولقد كانت رحلته فيه خصبة طويلة ، بلغت ٣٣ عاما ، وهى أطول رحلة لمصرى من الخالدين ؟

هذا هو كفاح طه حسين ، ولا أظننى أغلو فى شىء وإن قلت إن حياته كانت كفاحاً كلها ، كفاح فى الإعداد والتكوين ، وكفاح فى البذل والعطاء ؛ كفاح فى الأزهر ، والجامعة المصرية القديمة ، والسربون ، وتلاه كفاح آخر دام نحو خمسين سنة ، تعددت ألوانه وتنوعت سبله ، فشمل الصحافة والسياسة ، والأدب واللغة ، والعلم والتعليم ، والجامعات الحديدة ، ووزارة المعارف . لجأ فيه أحيانا إلى قارعة أو قنبلة يلقيها فيهز المشاعر ويستلفت الأنظار ، ولاشك فى أن كتاب « الشعر الجاهلى» من أولى هذه القنابل ، ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائى والثانوى فى خاتمة المطاف . وقد يكون من كفاحه ما ذهب مع الريح ، ولكن منه قدرا باقيا على الزمن . فهو دون نزاع من الأصوات القوية التى جهرت ، منذ أول العشرينيات الثانية من هذا القرن ، بضرورة فك الأغلال وتحطيم القيود الفكرية ، اعتد بحرية الرأى وتحكيم العقل ، استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى البحث والتحرى ، بل إلى الشك والمعارضة ، وأدخل المنهج النقدى فى ميادين لم يكن مسلما من قبل أن يطبق فيها . استن فى الكتابة

والتعبير لونا عذبا من الأداء الفنى حاكاه فيه كثير من الكتاب ، وأضحى عميد الأدب غير منازع فى العالم العربى جميعه :

ويشاء القدر أن يختم حياته بكفاح مرير ، فبلى بعلة طويلة تحملها بصبر الصابرين وجلد المجاهدين :

سيداتى ، سادتى :

ليس على طول الحياة ندم
ومن وراء المرء ما يعلم

يمـوت والد ويخلف مـو
لود وكـل ذى أب ييـتم

تغمد الله فقيدنا برحمته ، وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء »

●●● كلمة الدكتور حسنى سبح :

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق .

من بلاد الشام وبخاصة من دمشق ومجمعها ، أنقل إلى هذا المجمع الكريم مشاعر الحزن والأسى لوفاة عميد الأدب العربى فى هذا العصر المرحوم الدكتور طه حسين . وبفقده خسر العالم أديبا كبيرا وعبقريا فذاً هيهات أن يخلفه الدهر . ظل نصف قرن ونيفا ملء العيون ومطمع الأنظار . شغل العالم العربى بأسره ، بما طلع عليه به من آراء من بنات أفكاره وبما ابتدعه من أسلوب فى الإنشاء يكاد يكون نسيج وحده فهو الأسلوب الساحر ، سحر به الألباب ، وحبب إلى جمهرة الناس قراءة ما كان يصدره وينشره ، وما كان يمليه ويحاضر به تلاميذه فى صفوف التدريس ، ولقد أتى بالجديد من الدراسات فى الأدب غير مكتف بالقديم المتوارث ، وبما يلائم روح العصر من آراء فى النقد الأدبى بما لا عهد به للأجيال السالفة ، مازجاً مزجاً فنياً وعلمياً وببراعة فائقة بين الثقافتين العربية والغربية :

فطر فقيدنا على ذكاء مفرط ، وجبل على عزيمة خارقة ، فلم تقعده إصابته بالآفة المحتومة فى أيام صباه (على حد تعبيره) لم تقعده عن أن يبلغ ما تصبو إليه نفسه الكبيرة وما تطمح إليه روحه الوثابة من جد وعمل ، مستطيعاً بغيره كما عبر عن نفسه ومستبصرا ببصيرته .

فثار ثورته على ما هو متعارف ، ولم يشأ أن يكون مقلداً وتابعاً ، فأتى بما عُد خروجاً عن السنة المتبعة . ولم يعدم هذا الثائر فى عالم الأدب من بين الكثرة المعجبة به ، من قلة انتقدت عمله وناصبته العداء ، وما كان منه

إلا تلقى كل ذلك بصدر رحب غير مبال بما قيل ، ومتابعا السير .

ولعل المرحوم الأستاذ « محمد كرد على » الصحافى السورى القديم ، ومؤرخ الشام ، ومؤسس المجمع العلمى العربى بدمشق ، وممن أسهموا فى تأسيس مجمع فؤاد الأول فى القاهرة ، لعله من أوائل الذين قدروا الفتى العالم وشجعوا من كان يعرف بالشيخ طه حسين آنذاك ، ففتح له صدر مجلته «المقتبس» والتى أصدر المجلد الأول منها فى القاهرة ، ثم نقلها إلى دمشق ، نشر له مقالا فى مجلته سنة ١٩٠٦ بعنوان : هل تسترد اللغة العربية مجدها ؟ عدد فيه بعض الأسباب التى أدت إلى جمود اللغة العربية وتقصيرها عن مسايرة ركب الحضارة ، راسماً منهجاً عملياً للنهوض بها . ولو لقى ذلك المنهج القويم آذانا صاغية آنئذ (وقد مضى عليه ستون سنة ونيف) لكانت لغتنا العلمية فى يومنا هذا غير ماهى عليه .

ولما أصدر المجمع العلمى العربى بدمشق مجلته سنة ١٩٢١ تابع المرحوم الأستاذ « كرد على » ماينشره الدكتور طه حسين مقرظاً ومعلقاً ، مع شدة إعجابه بكل ماينشره إن فى الكتب المطبوعة أو فى المجلات والصحف .

ويطول بى المقام فى سرد كل ماكتبه فى هذا الشأن فأجتزئ ببعضه :

قال عنه مرة سنة ١٩٢٤ : من أكبر كتاب العرب المتخصصين فى عامة فنون الأدب ؛ وقد اشتهر بالأخص بطريقة فى النقد الأدبى مع ولوعه باقتباس مقدمات المدنية الغربية على اختلاف ظواهرها وأساليبها : وكتب بعد سنة : إن كل من شارك فى الأدب يعرف منزلته (أى الدكتور طه حسين) من النبوغ ؛ وكل من قرأ له مقالة ، وتدبر آيات فضله تتوق نفسه أبداً إلى أن يستكثر من تلاوة بنات أفكاره . أنا من المعجبين بأسلوب السيد طه حسين ومن يستحلى على الأغلب تكراره للمعنى الواحد فى جمل كثيرة ، وربما كان يجرى فى هذا النمط من الإنشاء على غير مثال يحتذيه ، وليس له من كتاب العصر بمنحاه ضريب ونظير على ماأعلم .

يبث طه حسين فيما يكتبه فى الصحف ويحاضر به طابته فى الجامعة المصرية ، روحاً جديداً هدته إليه الدراسة المنظمة ، وطول التأمل فى حال المدنيتين الغربية والعربية .

وعقب على كتابه (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ فقال : معظم أمالى هذا الأستاذ النابغة من الأفكار الطريفة ، أخذ بقسط عظيم من التجدد ، فيه بحث ودرس ، وكتابه هذا سيحدث تأثيرا مهماً عند أنصار القديم فى الأدب . ثم انتهى إلى القول : بحثه علمى مجرد من التقاليد . . . . ولاشك أن كتابه سيجد من مخالفيه مقاومة شديدة يربح العلم الحديث عقباها كتابا آخر :

وقرظ الأستاذ « كرد على » كتبه (فى الأدب الجاهلى) و (على هامش السيرة) و(الأيام) سنة ١٩٢٦ قائلا : لو كتب كاتب

من أهل العصر الماضى ماكتبه طه حسين فى هذه الكتب ، فكتب ألوفاً من الصفحات ماأغنى غناء طه ولا أبدع إبداعه .

وآخر ماكتب الأستاذ (كرد على) عن طه حسين : من تحصيل الحاصل الإشادة ببلاء صديقى العلامة الدكتور طه حسين فى خدمة الآداب العربية وأثره المحسوس فى إدخالها فى طور جديد، وبث أفكاره فى جميع طبقات القراء وكان مجلياً فى معظم ماخطته يمينه من بحث علمى وإبداع أدبى ، وكان عمله عدل علمه ، ظهر ظهوراً واسعا فى رئاسة الجامعة وفى وزارة المعارف . وماخلا مع هذا من حساد وأعداء، لكنهم قلائل جدا إذا قيسوا بالمعجبين به ، والمستفيدين من نفثاته ، فهو بلا مراء حسنة من حسنات مصر فى هذا العصر ، وفضله على الأفراد والجماعة لا ينكره عليه إلا مكابر .

هذا بعض ماقاله صديقه المرحوم الأستاذ « كرد على » . أما رجال الفكر والأدب فى سورية ، فلم يكن تقديرهم له وإعجابهم به بأقل من ذلك، فإن أنس فلا أنسى أبداً يوم لقيته أول مرة فى دمشق قادماً على رأس وفد مصر لمشاركة مجمع دمشق بالاحتفال بالعيد الألفى لأبى العلاء المعرى سنة ١٩٤٤، عندما وقف بقامته النحيلة على منصة مدرج الجامعة ليحاضر فى (الفصول والغايات) لأبى العلاء المعرى ، لا أنسى ذاك التصفيق الحاد الذى استقبله به جمهور مشاهديه فى القاعة فحسب بل العدد الكبير من الذين لم تتح لهم رؤيته من المستمعين الواقفين فى الباحات المحيطة بمبنى المدرج حيث نصبت مكبرات الصوت ، إذ لم يتمالكوا عند سماعهم صوته من متابعة التصفيق عدة دقائق .

وستظل كذلك رحلة من دمشق إلى حمص وحماة فالمعرة وحلب لتزور قبر أبى العلاء فى المعرة ويفتتح المكتبة التى أنشئت إلى جانب ضريحه ، ستظل ذكرى لا تنسى ، فلقد لقى فى كل بلد من هذه البلاد السورية التى حل بها ترحاباً لامثيل له .

ولقد كان رحمه الله شديد الحب للبلاد العربية ، ولعله كان يخص سورية ودمشق بالمزيد من الحب وكان كل مرة يلقى فيها واحداً من طلابه فيها أوزملائه الذين يتصلون به كان فى كل مرة شديد الرغبة فى التعرف إلى ماظهر من أمرها وما خفى وما جل من شأنها ودق .

ولما عقد مؤتمر مجامع اللغة العربية فى دمشق سنة ١٩٥٤ ، حيّا المرحوم شعب سورية فى حفل الافتتاح قائلا :

« وإنى ما رأيت على طول معاشرتى للسوريين فى سورية وخارجها أحداً منهم ينسى العروبة وكرامة العروبة ومستقبلها . ما رأيت كالسوريين يذكرون هذا ويفكرون فيه كما يفكرون بأنفسهم، كان الذى أوحى إلينا التفكير فى هذا المؤتمر ، رجلا من رجال سورية ، من دمشق عاصمة العروبة العظمى الصافية التى صفت فيها العروبة من كل شائبة

وخلصت العروبة للعرب خالية من أى أجنبى ودخيل، لم يكن بدمن أن يعود الحق إلى أهله ومن أن يكون تفكيرنا متجها إلى مكان انعقاد هذا المؤتمر وأن تكون دمشق الحبيبة أول مانفكر به . »

هذا هو فقيد العربية وكاتبها المبدع ومفكرها الكبير، أثار أدبها القديم وطور أدبها الحديث. طوّع أسلوبها وأدب دوما على التزام الطرفين المتباعدين الرامين إلى ترسيخ حيويتها : إغنائها فى ذاتها من نحو ، ثم رعايتها وحياتها من نحو آخر. وأنكر واستنكر — رحمه الله — كل الاستنكار ترويج اللهجات والعامية وتشجيعها واستعمالها، لأن فى الدعوة إلى العامية فك أواصر الصلة بين أفكار العروبة ، بل والعالم الإسلامى أيضا .

وحرى بنا نحن أولاء ، وقد اجتمعنا لتأبين الفقيد ، أن نسعى إلى تخليد حياته المليئة بالجدوالكد وبالعمل المثمر ، بكتاب يروى للأجيال القادمة قصة هذا النابغة الفذ ، شحذاً للهمم ، إذ مع أنه حرم من نعمة البصر وهو طفل، لم يقعده ذلك عن تحقيق ماتتوق إليه نفسه من طموح ، ومايريده للعربية من خير : إنى آمل أن نسارع إلى إعداد هذا الكتاب ونشره ، ثم إلى طبعه فى طبعات شعبية مبسطة ، لتأسى خطاه والنسج على منواله .

وبعد، فما كان للجسم النحيل الذى حمل تلك النفس الكبيرة الجادة آناء الليل وأطراف النهار ، ما كان لجسمه إلا أن ينوء دون تحمل ماحُمله. فتأثرت صحة أستاذنا لتسوء يوما بعد يوم، ومع هذا كله كان حريصا على أن لايخيب أمل كل سائل ومستفيد، كما حرص الحرص كله على ترأس مجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية فى داره عندما أقعده المرض واشتدت وطأته عليه، ليشرف على شئون الاتحاد ويوجهه بتوصياته .

وماأشبه حال الفقيد بالشمعة المضيئة التى تبدد الظلمة وهى تحترق وتذوب مستنفدة كل مافيها من وقود، فيد المنون لم تختطف الفقيد طه حسين ، كما يقال فى مناسبة كهذه، بل ظل يعمل مستنفدا كل ما ادخره جسمه من طاقة حتى انطفأت جذوة ذلك المصباح المنير وانتقلت روحه إلى بارئها .

رحم الله الفقيد وبوأه أرفع الدرجات وحفظ العربية وكتابها وآدابها خالدة إلى يوم الدين .

إنى لاأتوجه بهذا العزاء إلى مصر خاصة ، فالدكتور طه حسين ثروة العرب جميعا ، وكلنا فى هذا المقام يصح أن يكون معزيا ومعزّى .

وإنى باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أتقدم بأخلص مشاعر المواساة والعزاء إلى أسرة فقيدنا الكبير ، آملا أن يكون فى هذه المشاركة من أقطار الوطن العربى كله مايساعد هذه الأسرة الغالية على الصبر والسلوان .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●●● قصيدة الدكتورعبدالرازق محيى الدين

رئيس المجمع العلمى العراقى :

السادة الأعلام :

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد، فنحن فى المصيبة شرع سواء ، والرزية لفقيد عميد لأدب العربى، رزية الأمة العربية جمعاء. ومع ذلك فإن من واجبى أن أقدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة تعزية المجمع العلمى العراقى فى بغداد ، وأن أنقل مشاعر المثقفين فى العراق إلى مسامع المثقفين فى مصر وأن أرفع إلى الأسرة المفجوعة تعزية الأسر العراقية جميعا. ولقد كان بإمكانى بل لم يكن بإمكانى أن أقف عند حدود الكلمة الناثرة ، لأن الشعر مدين لطه حسين دينا لا ينسى .ومع أنى تركت نظم الشعر من سنين عديدة ، فقد استشعرت أن لابد لى أن أقول شيئا من ذلك .

ولذلك فإنى أستميحكم عذرا لو جاءت القصيدة على غير ما ترجون .

حى مع الناس أحياء بما شعروا
لا الرأى يبلى ولا ذو الرأى يندثر

يأبى الفناء كتاب أنت آسورته
تتلى ، وألواحه آراؤك الغُـرر

وأنت آية هذا العصر مبصـرة
ما تخطىء العين أو ما يجحد النظر

يبقيك هذا الذى أحييت من أدب
عفاه من عرفوا منه ومن نشروا

مما استراحوا له من قائم درجت
على سيادته الأوهـام والعصُـر

مرجمين رووا عمن رووا صعـدا
للغيب، مااستمطروا وحيا، ولاسطروا

مخلقات وأمشـاجا لو التحمـت
ببعضها ، لتعايـا الطول والقصـر

حتى انبريت لها بالشك تقتلها
علمـا فتحيا بها موءودة قبروا

يد صناع لو امتدت إلى يُبس
لأورق العود واحلولى له ثمر

ولو مشت لظلام الليل تقبسه
تنفس الصبح لم يأذن له سحر

سبحانك الله توتى النور فاقده
وتحجب النور عن قوم بهم بصر

يا أيها العَيْلم الهدار ما ركدتْ
رياحه ، أو سجت أمواجه الغزر

أتـوا سواحلك الدنـيا فخامرهم
أن يركبوا اليم فاجتازوا وما عبروا

مغررين رأوا نشزا فأطمعهم
ومادروا أنه موج وينحسـر

وأن غائرة فى القاع فاغرة ... والغيث يشربه الظمآن من قلل
تهوى بهم للأولى من قبلهم غمروا ... وربما سأل الأنواء ما المطر ؟
وأن من يركب الشُطْآن عارية ... هذا الذى أنا أُلقيه وتسمعه
غير الذى هو بالأمواج يأتزر ... له ، فلا العود من عندى ولا الوتر
أنت ابن عشرين ما تُلْوى فتنتصر ... والحامعات التى تعلوك شاهقة
وابن الثمانين ما تطوى فتنكسر ... مما ينى ، أو على آثاره عمروا
صلب قناتك لم تغمز فإن عجمت ... فالعلم زاد مشاع ليس يطعمه
كعوبها انماز من غيظ بها شرر ... من أترفوا ويمناه من افتقروا
ذودا عن الرأى أو نشرا لرايته ... والرأى صوت مصون ليس يمنحه
بالقول يفلج والأقلام تشتجر ... من زمروا ويقاضى فيه من جأروا
فى حين للرأى أجناد وأسلحة ... الرأى بالرأى لا سوط يهدده
وفى الأساليب مهزوم ومنتصر ... ولا زبانية تَشْلى فتأتمر
وللبيان على الألباب هَيْمَنة ... والدين محض قناعات متى أُخذت
لم يرج إلا لمعقود بها ظفر ... بالكره آمن من دانوا بمن كفروا
وفى القصائد أبكار محصنة ... من جَرَّدوا الناس من رأى بأن حُجِروا
وللأعاريض فحل شاعر ذكر ... عاشوا الحياة بلا رأى بأن حَجَرُوا
فليت مستجلبات الشعر قد عقمت ... طه تحدث حديث الخلد من كثب
وليت من فرطوا فى عقدها عُقِرُوا ... فالآن أنت بحيث الخُبْر لا الخَبَر
ياثانى اثنين للعلياء دونهما ... أللذى ظن ظنا أو تخيله
تقعى الدهاريز مما آدها السفر ... شيخ المعرة من صدق الروى أثر ؟
ألف مضت وهى وحمى فيك مثقلة ... أم حكمة الخَلْق أن نلهى بمفترض
حتى ولدت : فهل ألف بها أُخر ... فإن شهدنا يقينا نابنا خَصَر ؟
عهدان من عمر الآداب قد نعما ... طه ، تحدث فهذا الحفل محتشد
بالمبصرين هما الأوضاح والغرر ... كالعهد يشخص إكبارا وينتظر
وغير ذينك أصداء وتسلية ... عايشت جيلك أصفى ما تكون له
يزجى بها الوقت أو يحلو بها السمر ... نَبْعا ، وإن ساء وِرْدا بعض من صدروا
ويسألونك ما طه ؟ ولو خبروا ... للجامعيين أبناء ، أبُ حليت
ما عندهم منه ، لاستغنوا بما خبروا ... به الرقاب ، وإن شبوا وإن كبروا

وللمجمعيين إخوانا أخ كرمـــت حتى الذين أتوا نهجا يخالفه
به الأواصر واعتزت به الأسر عاشوا بأنهم فى خلفه اتجـــروا
تخال من هيبة فى الحفل يحضره نبت عميم تغشاه من احتطبـوا
أن الملائك فى وادى طوى حضـروا فألهبوا وسقوا خمرا من اعتصـــروا
لا يرفع الصوت إلا ريث يسمعه مما يهوّن من خطب ألمّ بنـا
فإن أشاح فمبهور ومبتســـــر أنا على خطة يسعى بها قدر
تغضى اللحاظ على علم ببغيتها وأن مصر على ما عاهدت ووفت
عنه فلم يوئت إلا خلة نظـــــر تبنى الشوامخ ما قلوا وما نزروا
أقصى الأمانى ممن أغدفوا رتبا يا مصر لى بك قبل اليوم واحدة
فى الفضل إطراءة من فيه تبتدر أسرى بها النجم واستهدى بها القمر
عاشت على فضله من زاده زمر غنت بمطران فاستهوت قصائده
وأفضلت ، وأتت من بعدها زمـر بأن يعود لها من وصله وطـــر
من ناقدين على منهاجـــه نهجـوا سلمت ولتذهب الدنيا ، وهل ذهبت
وباحثين على أضوائه ســـفروا دنيا بها مصر والفصحى لها وَزَرُ ؟!

●●● كلمة الأستاذ محمد رفعت :

عضو المجمع

« طه حسين وزيرا »

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

إن لفقد الصديق الحميم لحرقة ولذعة يحس بها الصديق المكلوم عند وقوع النازلة ، ثم لايزال فقد العزيز يؤرقه ويقض مضجعه ، حتى تدور عجلة الزمن ويتعاقب الليل عليه والنهار وتنقضى الأربعون أو نحوها ، وبعدها يستكين الصديق المفجوع ويستكين معه المحزونون جميعا إلى صبر جميل ، وذكرى عطرة تفيض بمآثر الفقيد وحسناته .

واليوم يعز على أيها السادة ويعزينى أيضا أن أحاول أن أحيط بطرف ولو يسير من سيرة الفقيد العزيز وزيراً للمعارف ، وقد كان لى شرف مرافقته فى هذا الدور من حياته ومن قبله ومن بعده . وطه حسين وزيراً ، لايقتضينا

ألبتة أن نرسم له صورة جديدة مكبرة ، فهو هو طه حسين قبل الوزارة وبعدها — طه حسين رب القلم ، وعميد الأدب وإمام الأحرار المستقلين ، وصاحب المعذبين فى الأرض ، ورائد من رواد الإنسانية جمعاء .

والناس من قديم دأبوا على أن يربطوا بين الوزارة والسياسة واعتبروهما صنوين متلازمين فى حين أن الوزراء إذا اجتمعت كلمتهم ، وتضامنوا سويا ، من أجل حكم البلاد ، لم تعد لهم سياسة خاصة ، وإنما عليهم جميعا أن يخلعوا بردة السياسة التى كانوا يتسربلون بها عادة ، وأن يتركوها على عتبة باب الوزارة عند « حافظ الأمانات » قبل ظهورهم على مسرح الوزارة ، وذلك لأن عليهم جميعا أن يلتزموا السياسة العليا للدولة التى هم فيها وزراؤها .

ويقول عالمنا الاجتماعى الأول ابن خلدون فى هذا الشأن : إن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها ، والسبب فى ذلك كما يقول ابن خلدون — أنهم معتادو النظر الفكرى والغوص على المعانى وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها فى الذهن لتصبح أمورا كلية عامة .

وإذا كان فقيدنا فى مسلكه السياسى قد ساير هذا الرأى فى مجموعه ، فإنه مما لاشك فيه ، أن طه حسين أيضا كان فى الطليعة من الكتاب العالميين المرموقين الذين تجاوزت رسالتهم الفكرية حدود الحيز الإقليمى الضيق ، إلى مجالات المدّ العالمى الكلى ؛ فقد كانت السمة الإنسانية هى الغالبة فى إنتاجه ، كما كانت معظم مؤلفاته مزاجا قويا من ذوب حضارتين عربية وغربية ، قد يراهما بعض الناس حضارتين مختلفتين مولداً ومنهجا ومادة ، ولكنهما كانتا فى تقدير فقيدنا فرعين أو شعبتين لنهر واحد تكمل إحداهما الأخرى ، وكلتاهما ترجع إلى نبع واحد هو الإنسانية والمعرفة .

ولست أجد مثالا أدل على ما امتاز به فقيدنا من تصعيد بآرائه إلى قمة النفع الإنسانى من قولته المشهورة أمام أحد المؤتمرات العربية المنعقدة بالإسكندرية :

« التعليم للفرد كالشمس والماء والهواء لا حياة له إلا بها » .

والشمس والماء والهواء كما يعرف الناس جميعا عناصر طبيعية متوافرة بنسب متفاوتة فى جميع أرجاء العالم ، وإن المجتمع أيا كان نوعه ومهما بلغ به العسف لايستطيع منع هذه العناصر عن أى فرد يسعى إليها . وقد نشر كاتب أمريكى مرموق اسمه « دونالدروبنسون » كتابا فى الخمسينات تحدث فيه عن مائة من أبرز الشخصيات فى عالم ذلك الوقت ، واختار من بين المائة عشرة من العمالقة ذكر فى مقدمتهم « ونستون تشرشل » مثالا للبطولة « ثم « ألبرت أينشتين » مثالا للعبقرية العلمية ، واختار أخيرا فقيدنا « طه حسين » رمزاً للكفاح والشجاعة .

ولست أعرف على وجه اليقين كنه الظروف التى أحاطت فقيدنا عند إسناد وزارة المعارف إليه فى يناير عام ١٩٥٠ ، ولكننى أعلم علما لايساوره الشك أن الدكتور طه حسين كان قد نشر كتابه عن مستقبل الثقافة فى مصر عام ١٩٣٨ ، وقد عالج فيه جميع نواحى التعليم العام والجامعى العالى والدينى والرياضى ووصف لذلك كله مختلف الأدوية الناجعة للبرء من العلل التى سادت محيط التعليم ماظهر منها ومابطن :

فكان كتابه أشبه بالكرة البلورية فى يد الساحر ، رأى فيها المؤلف ملامح المستقبل المضىء الذى كان ينتظره ، والخطوط العريضة لحركة إصلاح جذرية يتولى هو بنفسه رسمها وتوجيهها . وما عليه إلا أن يلوذ بالصبر الجميل حتى تدق الساعة المرتقبة قريبا أو بعيدا . لذلك فإنى أقول إنه حين رشح فقيدنا وزيراً للمعارف ، كان كتابه عن مستقبل الثقافة بيمينه تحت إبطه سائر مؤلفاته الأخرى الأدبية والعلمية والاجتماعية ، وهى جميعاً التى رسمت بأن يكون طه حسين وزيراً للمعارف وكأنه المعنى بقول الشاعر :

أتته الوزارة منقـــــادة
إليه تجرجـــر أذيالهـــــا
فلم تلك تصلـــــح إلاله
ولم يلك يصلح إلاهـــــا

ومهما يكن من أمر الذى قيل فيه هذا الشعر ، فإنى أرى فى الشطرة الأخيرة من البيت الثانى إجحافا بحق فقيدنا وانتقاصاً صارخا لمواهبه . فقد اضطلع — رحمه الله — قبل الوزارة بمسئوليات جسام ليست أقل خطرا من الوزارة ، فقد كان عميدا للأدب العربى غير منازع ، وكان مؤسسا ومديرا لجامعة الإسكندرية ، ورئيسا للتحرير فى أكثر من صحيفة ومجلة ، وعليها جميعا أفاض من حماسته وواسع علمه ، ونافذ بصيرته ، مما جعلها منارات يهتدى بها ، وأمثلة تحتذى .

وعلى كرسى الوزارة وجد فقيدنا نفسه لأول مرة يعتلى المركز الأعلى للثقافة فى البلاد ، وأراد أن يتفرغ لمعالجة المسائل الكبرى ، فلم يرهق نفسه كثيرا فى الشئون الإدارية ،

وهى بطبيعتها أمور مكتبية ميسرة ، قضى فيها فقيدنا وفق مزاجه الخاص غير عابئ بلائحة أو قرار ، ولاخاضع لقانون أو مرسوم . وكانت كلمة الوزير فيها هى العليا . ثم اتجه — رحمه الله — بكامل عزمه ، وماضى عزيمته نحو إنجازاته الكبرى :

وكان أولها قرار المجانية بالمدارس الثانوية ، ، والمجانية فى التعليم أيها السادة ، لم تأت طفرة ولافجأة ، . وذلك أن الحكومات المصرية ، أيا كان لونها ، قديمها وحديثها ، درجت فى أحيان كثيرة على التأنى والتريث فيما تعتزم تحقيقه من مشروعات . ولست أدرى إذا كان هذا التباطؤ مصدره التأكد أو التردد بالخوف أو دقة الحال ، فليكن مصدره إحدى هذه الخصال أو جميعها وإنما

أذكر أن أول من أشار بقبول عدد محدود جداً من طلاب التعليم العام غير المقتدرين مجانا ، هو الزعيم الوطنى الخالد «سعدزغلول» حين كان وزيرا للمعارف فى أوائل هذا القرن ،هذا على كره من مستشاره الإنجليزى « دنلوب » ، ثم سار الوزراء اللاحقون من بعده على هذا المبدأ وبنسب متفاوتة ، إلى أن تولى وزارة المعار ف المرحوم « أحمد نجيب الهلالى » فى عام ١٩٤٢ ، فهاله أن وجد ، بعد الدرس والاستقراء، دخل الدولة من رسوم التعليم فى المدارس الابتدائية الأميرية فى ذلك الوقت لم يزد على أربعمائة ألف من الجنيهات ، فقرر على الفور مجانية التعليم الابتدائى ، ثم تولى فقيدنا وزارة المعارف عام ١٩٥٠ ، وقد جاء فى خطاب افتتاح البرلمان حينئذ أن الحكومة ستقرر مجانية التعليم بالمدارس الثانوية وباقى مستواها ، ومع أن الدكتورطه كان قطعاصاحب الفكرة والداعى إليها ، فإنه أبى إلا أن يقول فى خطاب له ألقاه بنادى المعلمين فى الشهور الأولى من وزارته ، قال رحمه الله: وإن كل ما قاتموه ، وكل ماقيل اليوم ، وكل ماسيقال غدا وبعد غد ، عن المجانية لاينبغى أن يساق إلىّ ، وإنما ينبغى أن يساق إلى غيرى وإلى الوزراء الذين شجعونى على أن أحتمل هذه المحنة (هذه بطبيعة الحال كانت مجرد تحية ومجاملة لزملائه فى الوزارة) ؛

أما الحقيقة فقد عبر عنها قبل توليه الوزارة باثنتى عشرة سنة ، قال :

« ليس ينبغى أن نطلب إلى الديمقراطية أن توزع على الناس أقواتهم وتشبع فيهم اللذة والنعيم وهم هادئون مطمئنون . فهذا شىء لن يتاح لنظام إنسانى ، وإنما موعد الناس به الجنة التى وعد الله بها عباده الصالحين . أما الذى يطلب إلى الديمقراطية ويفرض عليها فرضا ، وهو أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب ، وأولها هو التعليم الذى يمكن الفرد من أن يعرف نفسه وبيئته والوطنية والإنسانية » .

وكان طبيعيا بعد تقرير المجانية فى مدارس التعليم العام أن يزداد الطلب على هذه المدارس زيادة غير معهودة مما جعل بعض الناس يتناولون هذه المجانية بالذم والنقد اللاذع ، لأنها فتحت أبواب المدارس الأميرية على مصراعيها لكل (من هب ودب) كما يقولون دون تشييد للمبانى اللازمة و إعداد للمدرسين نوعا وعددا . وقد واجه فقيدنا المشكلة بما عرف عنه من الحزم ومضاء العزيمة فقرر أن يرصد فى الميزانية بند خاص لبناء المدارس ، كما أمر بأن يكلف فورا ملاك المبانى أن يقيموا فى أبنية المدارس فصولا دراسية جديدة تتسع للمستجدين من التلاميذ ، وأن يعين خريجو كليات الجامعات فى وظائف التدريس رأسا ، أى دون أن يمروا بمعاهد التربية . وكان رأيه فى اكتظاظ ومايتبع ذلك عادة من هبوط فى المستوى العام للتعليم ، وكان رأيه فى ذلك كله أن مدارس التعليم العام يجب أن تكون كالمصفاة لاتبقى إلا على الصحيح السليم :

ثم يأتى موضوع الامتحانات ، وكان فقيدنا يرى فيها ظلماً كبيراً لأطفالنا الذين لايكادون يحسنون أن يمسكوا بأقلامهم ليكتبوا ، فكيف بهم إذا نحن طالبناهم بقراءة أوراق أسئلة الامتحان وفهم معانيها ثم يكتبون الإجابة عليها . وقد قال فقيدنا فى موضوع الامتحانات وضرورة قصرها على أقل القليل :

« أنا أعلم أن الامتحان شر لابد منه ، ولكن الغريب أننا لانتخفف من هذا الشر ولا نكتفى منه بأقل قدر ممكن ، وإنما نتزيد منه ونثقل به المعلمين والمتعلمين فنضطرهم إلى الشر ما وسعنا ذلك » . وقد ترجم فقيدنا آراءه فى هذا وغيره عندما كنا نجتمع فى أمسيات نعقدها فى داره لإعداد قانون جديد للتعليم العام . فكان من أهم مواده ماستقر عليه الرأى فى إلغاء امتحانات الانتقال بالمدارس الابتدائية من فرقة إلى فرقة أعلى ، ولايفوتنى أن أشهد برأى فقيدنا فى وجوب الاهتمام بتعليم اللغات الأوربية الحديثة ، فقد أعاد إنشاء مدرسة الألسن ، وجعل الالتحاق بها نتيجة مسابقة فى اللغة التى يريد الطالب أن يتخصص فيها . وقال فى شأن مسايرة الحضارة الحديثة : « ليس على الشخصية المصرية خطر من الحضارة الحديثة ، ولست أدرى لم تضيع شخصية المصريين إذا سادوا سيرة الأوربيين ولاتضيع شخصية اليابانيين مع أن لمصر من المجد والسليقة ماليس لليابان مثله ؟ » ؟

وأخيرا ترك طه حسين كرسى الوزارة الذى شرف اعتلاءه فقيدنا مـــدة عامين أو أكثر . وكان هذا فى أوائل عام ١٩٥٢ — تركه لالزهد فيه أو لضيق فى صدره منه أو لخلاف بينه وبين أحد المقامات السامية : وإنما تركه نتيجة لحادث سياسى داخلى أودى بالوزراء والوزارة جميعها . وهنا أرانى مسوقا إلى مناقشة الرأى الذى قال به العلامة ابن خلدون من أن العلماء هم أبعد البشر عن السياسة ومذاهبها. وهو رأى صاب وسـديد فى جماعه ، ولكن علينا أن ندرك أن ابن خلدون قد عاش فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى — أي فى أواخر العصور الوسطى حين كان العلم كالدين له قداسته وحرمته وكان رجاله يعيشون غالباً فى بروج مشيدة بمنأى عن السياسة ومذاهبها :

أما فى الأزمنة الحديثة حين ظهر فى العالم أهم المخترعات التى رفعت من شأن الإنسانية إلى أفاق جديدة بعيدة المدى من العلم والمعرفة تلك هى المطبعة الحديثة ذات الأحرف المعدنية المتحركة التى أنجزها « جوتنبرج » الألمانى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فإنه بفضل هذا الاختراع استطاع الناس أن يقرأوا كثيراً وأن يكتبوا كثيراً وأن يتناقشوا ويجادلوا طويلا ، وأن يتبادلوا الآراء فى الصحف والرسائل والكتب فى يسر وشغف.

وعند ذلك خرجت السياسة من أبراجها وتلقاها الناس كما يتلقون خبرهم اليومى وشرابهم

وأداتهم ، والرأى عندى أنه لابأس بالسياسة يمارسها الناس ، ويحتدم جولها النقاش ، وتزكى فيهم روح الاجتهاد والتنافس البناء ، ولكن الخطر كل الخطر فى أن تتدخل السياسة فى طريق تقدم العلم والمعرفة ، وقد شكا فقيدنا من تدخل السياسة فى شئون التعليم فقال : أحمد الله على أن السياسة وظروفها لاتخيفنى ، وعلى أنها لم تستطع قط أن تمنعنى من قول الحق حين يجب أن يقال ، وفى ذلك الخير دائماً ، وقد يكون فيه الشر أحياناً ، ولكن الله عز وجل يحمد على الخير والشر جميعاً . وقد آن الوقت الذى يجب أن ترتفع فيه الوزارة فوق ظروف الحياة العارضة ومايكون فيها من مد السياسة وجزرها وانحرافها يوماً ذات اليمين ويوماً ذات الشمال : آن الوقت الذى يجب فيه أن تأخذ الدولة أمور التعليم بالجد وتنظر إليها على أنها فوق الأهواء السياسية وفوق شهوات الساسة » .

رضى الله عن طه حسين وأرضاه وأجزل له المثوبة والعطاء ، وبارك لنا فيما تركه وأسداه لمصر والعروبة كافة من فتوح جديدة وكشوف غير مسبوقة فى آفاق العلم واللغة والأدب عامة

« أرانى قد قصرت فى حق صحبتى
وقد عقدت هوج الخطوب لسانيا
لقد غاب عنا ذا العميد ولم نجد
له بين أعلام المجامع ثانيـــــا
له الأثر الباقى وإن كان نائيـــا
فما زال بالروح الأمنية دانيـــا (*)

●●● كلمة الدكتور محمد كامل حسين :

عضو المجمع

((طه حسين مفكرا))

سيداتى سادتى

جمعتنى بالدكتور طه حسين صداقة من نوع نادر بعدنا بها عن صخب الحياة وعن مشاكل الساعة حتى حين تكون ملحة ، وكنا نعكف على الهروب من الحياة المحمومة التى يحياها الناس حولنا وكأنا نريد بلقائنا أن نجد — على الأقل فيما يتعلق بى — السكينة والتأمل والإيحاء ، وإذا عثر أحدكم على مثل هذه الصداقة فليحرص عليها أشد الحرص ، لأن الإنسان إذا قربت حياته من غروبها فلن يجد شيئا يسعد به إلا هذا الود الصافى الذى يتبادله مع قلة من صفوة الأوفياء . . فإذا كان هذا من ألوان السعادة عند الشيوخ فأنا من أسعدهم ، عرفت أحمد لطفى السيد فوجدت الحكمة ورجاحة العقل وسداد الرأى ، ونوعا من السمو الخلقى كان يعرفه ويقدره آباؤنا وأجدادنا ، ولم يعد له فى العصر

الحاضر شأن كبير . وعرفت عبد الحميد بدوى فكان الذكاء الوهاج والعلم الواسع العميق ، ويكفينى أن رجلا مثل ظفر الله خان رئيس محكمة العدل الدولية أخبرنى شخصياً أنه كان يعد عبد الحميد بدوى الأب الروحى له ، ثم عرفت طه حسين فوجدته جمع إلى فضائل صديقيه هذين قوة فى العزيمة لا تزيدها المقاومة إلاشدة ، وصلابة فى الرأى حين تتحول المقاومة إلى مناوأة ، حتى إذا صرح الشر وأصبحت المناوأة عداء سافراً وجدت له قوة خارقة .

كانت فى أعماله مثل المفكرين وكانت فى تفكيره صلابة العمليين ، فاستطاع أن ينجز أعمالا كنا نحسبها أمانى عزيزة بعيدة المنال فأصبحت بفضل جهوده حقائق واقعة .

وأظهر صفاته العقلية صفاء الفكر لا يحجبه كدر ولا اضطراب ، وصفاء الفكر عندنا نحن المشتغلين بالعلوم الطبيعية أكبر الصفات وأعظمها وأدعاها إلى النجاح ، وأذكر أنى كنت أقول لطلبتى فى كلية الطب «خير لكم أن تكون فكرتكم واضحة وإن تكن خطأ من أن تكون غامضة تحتمل الصواب» . وأذكر أن عالما باكستانيا اسمه عبد السلام هو الآن من أكبر علماء الذرة ، سئل عن نظرية بعينها فقال : لا أظنها صحيحة لأن الطبيعة تحل مشاكلها حلولا رشيقة . هذا ما يجب أن يصدق على الإنسانيات والآداب كما يصدق على العلوم . فقد مضى العهد الذى كان فيه الغموض دليلا على عمق الفكرة ، والغموض ليس دليلا على عمق الفكرة ، لأنه لا يلتوى على القارئ وحده ، وإنما يلتوى على المؤلف أيضا ، فيخرج من غموض إلى غموض ، ولا أحسب أن أحداً قرأ للدكتور طه حسين ثم سأل نفسه بعد ذلك ماذا يريد أن يقول . وليست المسألة مسألة نصاعة الأسلوب ، فهذا مستطاع ، ولكنها نصاعة الفكرة التى تجذب إليه الناس :

وكان تفكيره حاسما ، تجده حينما يحتدم الجدل فى أمر من الأمور ، ينصت ثم يدلى برأيه فاذا هو القول الفصل يصعب دحضه أو التعقيب عليه حتى من مخالفيه . وكان تفكيره نفاذاً تحيط به الصعاب من كل جهة وتعترضه أمور كثيرة متناقضة ، وآراء مضطربة فيستطيع أن ينفذ منها إلى نتائجها حتى إذا جاءت هذه النتائج وجدتها كما ظن كأن قد رأى وقد سمعا ، وخلا تفكيره من العيب الذى أود أن أسميه التفكير الهش أو التفكير المنفوش كالعهن ، على حد التعبير الإنجليزى ، وهو التفكير الذى تراه من بعيد فتحسبه شيئا عظيما حتى إذا جئته وضغطت عليه وجدته هزيلا ضعيفاً ، ولم تجد له صلابة ولا عزماً . هذه الصفات فى تفكيره جعلته شخصاً يختلف عن كثير غيره من المفكرين وأعتقد أن الدكتور طه يصح أن نقول عنه إنه اخترق حاجز الصوت فى المجال الفكرى فبلغ فيه آفاقاً أوسع ، وأصبح بينه وبين المفكر الوسط فرق لا تتبينه بسهولة ، مع أنه فرق واضح بين المفكر الأصيل والمفكر الوسط ، وإن ظن بعض الناس أن أعمالها متشابهة إلى حد بعيد ، ولكن أحد التفكيرين خصب والآخر مجدب :

حاولت أن أتبين المحور الذى دار عليه تفكير طه حسين وأعماله ، فإذا هو إباؤه أن يذعن للنظم المستقرة ، هذه أكبر صفاته. والنظم المستقرة هى النظم التى يحرص أهلها على إبقائها لما يتمتعون به فى ظلها من ميزات لاتؤهلهالهم كفايتهم ولا الجهد الذى يبذلونه أطلق الغربيون على هذه النظم كلمة «estabish-ment» هذا النظام المستتب كان يكرهه طه حسين بطبيعته ، يرى فيه خمولا عقلياً ويرى أنه مخالف لطبيعة الأشياء ولطبيعته بصفة خاصة وكثير من الناس يحبون أن يتخلصوا من النظم المستتبة ، ويسمون أنفسهم المجددين ، والواقع أن كثيراً من هؤلاء المجددين ليسوا إلا محافظين على الجديد ، وليسوا مجددين بالمعنى الحق ، فتراهم إذا وصلوا إلى أولى خطوات التجديد قنعوا بها وسكنوا إليها . على أن التجديد يجب أن يكون حركة مستمرة ولاأرى فرقاً بين الذين يتهافتون على العلماء الأجانب وينمسكون بهم وينقلون عنهم ، وبين من ينقل عن ابن قتيبه وأبى هلال ، فيقال هؤلاء متأخرون ، ومحافظون ، وأولئك مجددون ، والواقع أن عقليتهم واحدة ، وأنه لافضل للذى همه النقل عن المؤلفين الأجانب المحدثين ، والذى ينقل عن القدماء .هؤلاء ليسوا مجددين ، وإنما هم محافظون على الجديد لجدته ، وليس لهم أن يعيبوا على آخرين أنهم يتمسكون بالقديم لقدمه ، أما طه حسين ، فكان مجدداً دائما ، والتجديد يجب أن يكون مستمرا ، وإلا فقد أهم خصائصه . وكثير من المحافظين يرون أن الاستقرار شئ لابد منه لحياة الناس السوية ولحياة الأمم ، ولكن الاستقرار نوعان : نوع قديم ، الثبات فيه كثبات الأهرام ، ونوع جديد ، الثبات فيه كثبات الطائرة ، ثباتها فى حركتها فإذا وقفت سقطت ، وهذا هو التجديد الحقيقى الذى حرص عليه الدكتور طه حسين ، لأنه كان من طبيعته .

والذين يسمون أنفسهم مجددين وليس من طبعهم التجديد يجدون أنفسهم بعد قليل لا يستحقون هذا الاسم أبداً .

بدأ الدكتور طه حياته الفكرية فى أوائل هذا القرن حين كانت الحياة الفكرية فى مصر مضطربه حقاً كنا لاندرى مانفعل . كان منا المحافظون الذين يريدون أن يبقوا على القديم ولهم الحق فى ذلك . كانوا يريدون أن يحافظوا على قوميتنا وشخصيتنا وهذا شعور نبيل ، ولكن تبين لنا بعد قليل أن هذه طريق مغلقة ، ثم كان منا من أخذ المدنية الغربية عن أهلها اختصاراً للطريق ولكنهم تبينوا أنها لن يكون لها بذور فى نفوسهم ، فعادوا إلى اللغة العربية وإلى الثقافة العربية ، ولم يكونوا قد عرفوا قبل ذلك مداها وقوتها ، فلما عادوا إليها لم يستطيعوا استيعابها تماماً ، فكانوا سطحيين فى كلا الثقافتين وكان شأنهم والثقافة العربية شأن الفرسان الذين قيل فيهم : « لم يركبوا الخيل الا بعد ما كبروا » ومن حسن حظ الدكتور طه حسن أنه أخذ الحضارة العربية أخذاً متينا ، أتقنها وأغرم بها ، وظل طول حياته مفكراً عربياً ، ثم خرج من هذا النطاق ولا أقول أنه خرج عن الثقافة العربية

ولا خرج منها ولا خرج عليها ، وإنما خرج بها إلى آفاق أخرى كما كان يجب أن تخرج اولا السبات الذى أصابنا ، وهو السبات الشتوى الذى امتد عدة قرون ، والسبات الشتوى ظاهرة فى الكائنات حين تكون البيئة غير مواتية للحياة الطبيعية :

على كل حال تكونت حولنا أسوار كان يجب أن نخترقها قبل أن نصل إلى الآفاق لا أقول العربية وإنما الآفاق التى كان يجب أن نصل إليها اولا هذا السبات الطارئ .

فالدكتور طه امتد بتفكيره إلى الآفاق الجديدة ، وكان عليه أن يهدم بعض هذه الأسوار فكان أن فعل فعلته الكبرى التى هى كتاب الشعر الجاهلى ، وهو عندى نقطة تحول ، لا لما فيه من آراء قد تكون صواباً وقد تكون خطأ .

كل نهضة فكرية فى العلوم أو الآداب يسبقها هذا الهجوم لا على الثقافة القديمة ولكن على الأسوار التى أقيمت حول هذه الثقافة فمنعتها أن تنمو نموها الطبيعى .

شهدت الدكتور طه حسين مع كثير من المفكرين الغربيين ولا أقول المستعربين ، فهؤلاء كانوا يحجون إليه جميعاً حين يحضرون إلى مصر ، ولكنى أتحدث عن المفكرين غير المستعربين وكان له منهم أصدقاء كثيرون منهم هريو (Periot) ، ودو هاميل (Duhamel) وكوكتو (Cocteau) وغيرهم ، وتوطدت صداقته باندرية جيد (Andr'Gide) ، وكنت أظن أن صداقتهما ترجع إلى حبهما للحقيقة السافرة مهما يكن من غضاضة أو مهما يكن فيها من خروج على العرف ، وكلاهما كان يحب الأسلوب الناصع السهل الذى يؤدى إلى غاياته بغير تعسف أو عناء .

كنت أرى الدكتور طه لايحاول أن يبهر هؤلاء العلماء والمفكرين بما يقوله لهم عن ثقافتهم هم ، فذلك يكون « كمبضع التمر إلى هجر » وليس من المعقول أن يفخر عربى حين يلقى الأجانب بأنه يعرف ثقافتهم كما يعرفونها هذا ليس طبيعياً ، ولكن الدكتور طه كان يبهم من حيث هو مفكر عربى أصيل استطاع أن يمتد بتفكيره إلى أن يوازى التفكير الغربى من غير أن يفنى فيه :

والدكتور طه — على كثرة ما علم من الثقافة الغربية — لم يدع تفكيره يفنى فيها أبدا ، ولو فنى فيها ما حفل به أحد من هؤلاء العلماء ، ولكنه ظل عربيا صميما يختار من الثقافة الغربية مايوافق طبعه ، يرتوى منها كما ترتوى النباتات : فتنبت على أحسن وجه ، ولم يقتبس من العلماء الغربيين آراءهم كما هى :

ولايعجبنى أبدا بعد أن يبين لنا طه حسين طريق الجمع بين الثقافتين العربية والغربية أن أرى قوما منا ومن كبار مفكرينا من بهرتهم المذاهب الأدبية كالوجودية والرمزية ، فعكفوا على كتابات من هذا النوع أو ذاك .

وأذكر أن «لطفى السيد» قال لى إنه كتب إلى طه حسين — حين كان يدرس فى باريس — يحذره هذه المذاهب ويقول له : « احذر من

كل شيء آخره (ism) »، ولم يكن الدكتور طه فى حاجة إلى هذا التحذير، لأنه بطبيعته، يأبى أن يتقيد بمثل هذه القيود .

وكان يجب على الكتاب المصريين أن يأخذوا من الحضارة الغربية لا مادتها، ولكن أسلوبها. وأرجو أن يتعظوا بهذا المثل الذى ضربه طه حسين للجمع بين الثقافتين ويسيروا فى الطريق الصحيح .

عاهدتكم أن أتكلم عن تفكيره إلا أنى سأعرض لإحدى نواحى حياته ، وهى التى تكلم عنها الدكتور مدكور ، وهى الكفاح ، ولا أزيد عليها كثيرا، وإنما أقول إنى قلت للدكتور طه يوما من الأيام : الناس منك فريقان ، فريق يحبك جدا ، وفريق لا يطيق أن يسمع اسمك، وإن أحد هؤلاء يرى أنك تعد الأذهان لثورة كالثورة الفرنسية، وأنك تعمل ما عمله (فولتير) (روسو) والانسيكلوبيديين ؛ فدهش الدكتور طه لهذا ، وقال إنى لأغضب أن يوصف عملى بمثل هذا الوصف .

لم تكن هذه الدعوة إلى الحرية لترضى أولى الأمر، وكان الملك (فؤاد) له حنكة سياسية فأدرك أن مثل هذه الحرية وخاصة إذا كانت فى الجامعات تؤذى النظام المستتب الذى هو رأسه وعماده وعنوانه، فعزم على ألا يترك الدكتور طه حسين يقوم بهذه الدعوة. وذكر لى الدكتور (مايرهوف)أنه قال للملك فؤاد : إننى لا أتصور مجمعا للغة العربية ليس فيه طه حسين ، ومع ذلك رفض الملك أن يجعل طه حسين من بين مؤسسى مجمعنا هذا .

ثم كانت محنة خروجه من الجامعة وانضمت الأمة كلها للدكتور طه حسين ولكن المسئولين انقسموا قسمين : فريق على رأسه لطفى السيد يدعو إلى حرية الفكر، وفريق له رأى عجيب جدا يسوءنى أن أردده هنا، كانوا يقولون ألا يباح للملك أن يغضب على مدرس نحو وصرف. إلى هذا الحد بلغ الجهل ببعض المسئولين الذين لم يقدروا ما فى هذه المحنة من أثر على الحياة الفكرية فى مصر .

ثم جاء الملك فاروق، ولم يرث عن أبيه الحنكة السياسية ، ولكنه ورث عنه كره الدكتور طه حسين ، كرها يكاد يكون (حساسية)، وأظهر ذلك فى مواقف عديدة وكنت أعلم من خبرة شخصية أن حظ الملك فاروق من الآداب الملكية غير موفور ، ولكنى لم أكن أظن أن يعلن الملك ذلك فى صراحة غير لائقة .

ثم دارت الأيام، وأصبح طه حسين وزيرا للتعليم ، ووجد فى ذلك فرصة لعمل الإصلاحات التى حدثكم عنها الأستاذ محمد رفعت، ولكن الملك قابله مقابلة جافة جدا عندما ذهب لحلف اليمين ، فكان أحد زملائه يقول : لو قابلنى الملك هذه المقابلة لاستقلت فى اليوم التالى . وهذا يدل على أن هذا الزميل لم يعرف ولم يكن له أن يعرف حقيقة الأمر ، لأن الدكتور طه فرح جدا بهذا اللقاء الجاف ؛ لأنه أقنعه أن الملك هُزِم ، وأنه أحسّ بالهزيمة .

ثم جاءت حفلات الجامعة المصرية ورفض الملك أن يعطى طه حسين (الباشوية) ،وأؤكد لكم وأنا صادق فى هذا — أن الدكتور طه لم

يكن يحرص على هذا اللقب بالمرة ، ولكن رئيس الوزارة قال : إن رفض الملك إعطاء هذا اللقب للدكتور طه حسين يعدُّ عدم ثقة بالوزارة، فخضع الملك فى المرة الثانية وأعطاه اللقب .

وقد عيب على الدكتور طه ، أنه أسرف فى مدح "فاروق" ، والواقع أنه مدحه بعد أن أخذ منه عنوة كل ما يمكن أن يعطيه الملك إياه ولم يكن له شئ يرجوه بعد ذلك من الملك .

وتفسير ذلك عندى أنها «شنشنة» نعرفها من إخواننا أهل الصعيد ، وأرجو أن يغفروا لى ذلك، لأنى لا أقوله ذماً، وأهل الصعيد حين يتغلب ضعيفهم على قويهم، يحرص على أن يذهب إليه ويمدحه مدحا مسرفاً يدرك كل الناس أنه نوع من التشفى، وأنه أخذ بثأره قولا بعد أن أخذ بثأره عملا، فلم يكن الدكتور طه فى مدحه المشرق للملك إلا صعيديا بأحسن معانى هذه الكلمة .

وفى ختام كلمتى أود أن أشير إلى أن من الناس أعماله جيدة، فإذا نظرت إليها فى مجموعها وجدتها أقل من أجزائها ، فإذا نظرت إلى حياته كلها وجدتها شيئا لا يؤبه له، كذلك الشعراء يعجبك البيت والبيتان فى القصيدة ، وتكون القصيدة مع ذلك ضعيفة ، فإذا نظرت إلى الديوان كله لم تجد شيئا يذكره .

أما الدكتور طه حسين فكان على العكس من ذلك تماما ، أعماله جيدة من غير شك ، ولكن مجموعة أعماله أضخم وأعظم من أجزائها ، حتى إذا نظرت إلى حياته كلها، وجدتها حقاً ملحمة رائعة ، أسطورية لا نظير لها .

●●● كلمة الأسرة للمهندس الأستاذ عبد المجيد حسين

شقيق الفقيد

السيد نائب الرئيس ،
سادتى أعضاء المجمع ،
سيداتى ، سادتى

ليس بالشرف القليل أن تتاح لى فرصة الوقوف بينكم لأتحدث إليكم .

ماذا أقول فى شكركم ؟ فأنتم تحتفلون بذكرى فقيد لكم عزيز عليكم ، كان بمجمعكم الموقر حفياً كما كان للغة التى تمثلونها نصيراً وفياً ، ولئن كانت صلة الأسرة بالفقيد صلة رحم وقرابة ونسب ،

فإن صلتكم به أكثر عمقا وأبقى أثراً ، إذ أنها صلة فكر وروح .

وإن لم يكن بد من أن تكون للأسرة كلمة فكلمتنا هى تحية إكبار وإجلال لهذا الوفاء الرائع ، الذى ضربتم له المثل الأعلى فى حفلكم هذا الجامع الكريم ، خطباء وسامعين وافدين ومقيمين .

إن روح الفقيد لترفرف عليكم من عليائها لتهدى إليكم عالى الرضى والعرفان ، ولتلهمنا جميعا جميل الصبر والسلوان .

والسلام عليكم ورحمة الله